

الفصل الرابع

أثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية

أن موضوع الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية لا يتسع له هذا الفصل ، ذلك لأن الحضارة العربية الإسلامية وقد تركت بصماتها واضعة وقوية في كل فروع العلوم الإنسانية التي عرفتها أوروبا ومن هنا فإن كل فرع من هذه الفروع التي أثر العرب فيها يحتاج إلى مؤلف خالص وعلى هذا ، فموضوع الحضارة العربية الإسلامية موضوع متشعب الجوانب عميق الجذور ، لذا فإنني سوف أحاول إلقاء الضوء على بعض من هذه الجوانب ونأخذ من كل جانب قطرة نلقى بها أمام القارئ كل يتعرف على جزء من أثر الإسلام في الحضارة العالمية التي ينعم بها العالم المعاصر اليوم .

والحضارة العربية الإسلامية هي أولا حضارة عربية لأن الذين قاموا ونشروها خارج الجزيرة العربية هم العرب أنفسهم وهم العمود الفقري في هذه الحضارة ، ثم بعد ذلك شارك فيها المسلمون الذين فتحت أقطارهم في شتى أقطار المعمورة التي انطوت تحت لواء الإسلام وكذلك فهي إسلامية لأنها استمدت عناصرها الأساسية من كتاب الله وسنة رسوله الكريم وهما حجرا الزاوية في تلك الحضارة .

إن فضل العرب والثقافة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية لا ينكره أي منصف أو دارس للتاريخ الإسلامي والعالمي ، ولكن الكثير من الغربيين وأشياعهم من المستشرقين والمبشرين ، حادوا عن نزاهة العلم وطعمسوا الحقيقة الواقعة وهي أن العرب والمسلمون هم أصحاب الفضل الأول فيما تنعم به أوروبا من البحث العلمي اليوم .

وقد يبدو للبعض في هذه الأيام وخصوصا الأوروبيين أن الفضل في قيام النهضة العالمية وتقديم العلوم التي ينعم بها عالمنا المعاصر ، ترجع إلى أوروبا وإلى

العلماء الأوربيين وحدهم ولكن الواقع غير ذلك ، فان النهضة العلمية الأوربية التي بدأت تباشيرها منذ القرن السادس عشر الميلادي أوقبله بقليل ثم سارت بخطى واسعة وسريعة منذ القرن الثامن عشر ، ما كان لها أن تقوم وتزدهر في الغرب لو لم تستند على أساس متين من التراث العلمي الذي نقله المسلمون إلى أوربا في أثناء عصورهم الزاهرة في القرون الوسطى وفي وقت كان العالم يرسف في أغلال الجهل والتأخر والخرافة باستثناء الشرق الاسلامي الذي استنار بظهور الاسلام ونبوء العرب والمسلمون مكان الطليعة في الزحف الانساني نحو الحضارة والتي حمل لوائها عباقرة المسلمين أمثال جابر بن حيان ، الخوارزمي ، البيروني ، ابن سينا ، أبو بكر الرازي ، وابن خلدون وغيرهم من علماء المسلمين .

دور العرب في الحضارة الاسلامية :

لقد انكب العرب والمسلمون في العصور اوسطى على تحصيل العلم والتأليف فيه فبدأوا أولا بترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم عدلوا وهذبوها ورتبوا علومها وأضافوا إليها ما حصلوا عليه بتجاربهم وطبعوها بالطابع العربي ونقلوا تلك العلوم إلى أوربا التي كانت تتخبط في ظلمات العصور الوسطى ثم نفخت أروبا عن نفسها تراب القبور وقامت تتلمس ما غرسه العرب والمسلمون والتي أصبحت علوما عربية إسلامية تعربت حين فرضت عناصرها في أذهان العرب ، ولقد اندثر علماء المسلمون في أطراف العالم المعمور وتسلموا مشعل المعرفة وأعطوه لأبناء العالم الحديث حيث أتموا الدور .

وتقول أنه ما أن ظهر الاسلام حتى كانت مبادئ القرآن الكريم هي الرسالة الأولى التي حملها العرب إلى غيرهم من الشعوب التي انطوت تحت لواء الاسلام والتي نهضوا بسببها ومن هنا فان الاسلام بصورة عامة جعل للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم وظيفة عالمية وجعل للعرب بلى لسائر المسلمين مهمة دولية ومكانة خاصة . بين الأمم والشعوب وهي مكان الصدارة والقيادة وما علينا نحن المسلمين إلا أن نتمسك بهذا الكنز الإلهي العظيم ، القرآن الكريم وأن نعتز به ونزد عنه كيد الطاعنين وزيف الزائفين ، أعداء الاسلام من الصليبيين والمستعمرين .

واجب المسلمين :

لقد كانت الشعوب الإسلامية الناطقة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر هم حملة شعلة الثقافة والحضارة والمدنية في ربوع العالم أجمع بل أنهم فوق هذا كانوا هم الذين كشفوا ونقبوا عن الفلسفة والعلوم القديمة وأضافوا إليها فكرهم وثقافتهم ولقد أثرت الحضارة الإسلامية في العالم الأوربي بعلومها وفنونها وتراثها الزاخر ولقد كانت الأندلس أكثر تأثيرا من بلاد العالم الإسلامى الشرقى وذلك لقربها من الممالك الأوربية التى أخذ طلابها يفيدون إليها للتزود بالعلوم الإسلامية .

واليوم لقد آن الأوان للقضاء على مازكة الاستعمار من مسخ ثقافى وافترام على الثقافة الإسلامية العربية الأصلية وأن نعيد هذه الثقافة العربية الإسلامية قوية كما كانت وأن تجعل لها السيادة على الثقافات الأخرى وأن نلقن الطلاب الناشئة فضل آبائهم وأجدادهم على العلم والحضارة حتى يشبوا وهم معتزون بثقافتهم وحضارتهم الإسلامية .

وقد قال معلم البشرية ومنقذ الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها ، فهو أحق بها فهل تعود للثقافة الإسلامية العربية مكانتها ، نعم فالمسلمون والعرب مدعون اليوم لحل رسالتهم من جديد وتأدية الأمانة التى يحملونها إلى هذا العالم المادى الحائر بهدايته إلى اعتناق الدين الإسلامى الحنيف ومن هنا يقبين لنا فضل الإسلام وحضارته الزاهرة فى حياة العرب والعالم أجمع فى الماضى والحاضر والمستقبل ولو عرف الغرب مافى الإسلام من المساواة بين خلق الله جميعا ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى لانتبهوا عما يرتكبون من جرائم قتل زعماء المسلمين من الملوئين ولانتبهوا عما يفعلون ، وأحسوا بقيمة الإنسانية والأخوة والبشرية ولو تفهم الناس تعاليم وشرائع الإسلام اتم انطواء العالم كله تحت راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

الغرب يشهد بفضل حضارة الاسلام :

ولقد قال د جوستاف لويون ، فى كتابه حضارة العرب أن فلاسفة العرب

والمسلمين هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، وقال د كارفيسكي ، في كتابه والأبعاد الجديدة للإسلام، أن الخدمات التي أداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وأن الأبحاث الحديثة قد دلت على أن علماء المسلمين قد فثمروا العلم بينما كانت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى، وقالت زيجرد هونسكة في كتابها وشمس العرب تسطع على الغرب، أن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وأن الدين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جداً وأن هذه الطفرة العلمية التي نهض بها أبناء الصحراء من أعجب النهضة العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري وأنه كيف أنهت الحضارة الإسلامية وعلوم العرب القرون الوسطى إلى غير رجعة وكيف كان للحضارة والثقافة الإسلامية والعربية الفضل في بداية النهضة الأوروبية ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط بل كان له الفضل في نهضتها الحديثة .

واعترف بذلك د يريفوت ، في كتابه تكوين الإنسانية ، لقد كانت أوروبا في أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة بينما العالم العربي في بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وطيطلة مراكز للحضارة الإسلامية والذشاط العقلي ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنساني جديد

لذا فإنه يجب على مفكرى الإسلام أن يعملوا على إعادة الثقة بالحضارة الإسلامية وإعادة عصرها الزاهر وكذلك فإن أقلام أعلام الإسلام مدعوة لهذه القضية الإسلامية لأن أبناء أوروبا والأمريكتين متثوقون لمعرفة ذلك الدين القيم وتلك الحضارة الإسلامية الزاهرة وأن يقفوا على حقيقة الدين الإسلامى ، وليلم كل عاقل مفكر أن الإسلام دين حضارة ، ولقد أضفى على البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والعلاقات الإنسانية ، كما أن المسلمين أخذوا من الحضارات السابقة وتفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارات العالمية الأخرى.

ويقول د كوبلر يونج ، أن كل الشواهد تؤكد أن العالم الغربى مدين بوجوده إلى الثقافة العربية والإسلامية كما وأن المنهج العلمى الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة والذي أخذ به علماء أوروبا إنما كان نتاج اتصال العلماء

الأوربيين بالعالم الاسلامى الذى أمدهم بكثير من المعارف الإنسانية ، ويقول الكاتب الفرنسى دريزيه ميليه ، فى كتاب «الاسلام والحضارة الحديثة» ، لقد كان الإسلام هو العنصر المؤثر والعالم الأوروبى هو العنصر المتأثر ، ومن ناحية العلوم فإن أوروبا لبنت ثلاثمائة عام تقتبس من الإسلام ، ويقول «أميل در منجهم» فى كتابه «القيم الخالدة فى الاسلام» ، أن قيمة الأمة الإسلامية ليست فقط فى أثرها التاريخى وهو تغير نظم الحكم على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، بل فى أنها لا تزال إلى اليوم حية قوية ، بل لقد كتب لها الخلود والبقاء أبد الدهر .

وذلك لأن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية نظامها الاجتماعى يقوم على أسس متساكة ونظامها الاقتصادى يعتبر رأس المال وسيلة لا غاية ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعرفة ولا شك فى أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية لقد انتقل العلم قديما من بلادنا الاسلامية والعربية إلى العالم الغربى فنهض به وسار على هدى نوره حتى وصل إلى مدى بعيد فى مجال البحث والاختراع وأن ملوك أوروبا وحكامها كانوا حريصين بعد أن علموا ما عليه الإسلام والعرب ، فتوالت على جامعات الأندلس البعثات الأوربية لتلقى العلم والفنون والصناعات حتى أن ملوك انجلترا أرسلوا البعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك وكل ما يؤدى إلى رقى الدولة والسير بها فى مضمار الحضارة والتقدم .

وكتب جورج الثانى ملك انجلترا إلى هشام الثالث الخليفة الأموى بالأندلس يقول: «لقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع به معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا لابنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتناء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يسودها الجهل من أربعة أركان» ، ولقد أرسل الملك وفداً برئاسة وزيره الأول إلى الأندلس ، وكان ملك بلغاريا قد أرسل وفداً إلى الأندلس فى عهد هشام الأول لدراسة نظم الحكم ومنهاج التعليم وأساليب الإدارة وعند عودة البعثة أمر الخليفة بأن يرافقها «مستشارون» وخبراء من الأندلس يساعدوا الملك فى كل ما يريد ، ثم أخذ ملوك أوروبا يذسجون على منوال الملك البلغارى .

الغزو الفكري الغربي :

والحقيقة التي لا مراء فيها أن العالم العربي والإسلامي يواجه اليوم غزوا حضاريا غربيا ، فاذا يكون موقفنا نحن الآن من هذه الحضارات الأوربية والأمريكية أنه يجب أن تواجه هذه الحضارة المادية لأن حضارة الإسلام والعرب صالحة كل زمان ومكان ولأن تكون أساساً حضارياً لحضارة زاهرة تفوق حضارتهم الزائفة المادية ، كما كانت من قبل ونحن ندعوا كل مسلم في شتى بقاع الأرض المعمورة أن يتمسك بمعلم حضارته القوية العريقة الراسخة الدعائم والوطيدة البنيان ، وأنه لا موانع أبداً إذا رأى المسلمون أنهم في حاجة إلى بعض ألوان تلك الحضارات الغربية من أن يقبسوا منها ما يتفق مع تعاليم دينهم الإسلامى الخفيف وما يتلائم مع ظروف تقاليد مجتمعتنا العربى الإسلامى الأصيل لقد أصبحت أوروبا المصنع العلمى الحديث ويشاركها في ذلك أمريكا واليابان ، فغزت منتجاتها بلادنا العربية الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، بعد أن تخلفنا عن السير عن الركب الحضارى ، ولم يكن هذا التخلف منا عن عجز على أو تبلى فكرى بل أن العالم يعترف حتى الآن بفضل الإسلام والمسلمين على الجميع ولكن الاستثمار حال بيننا وبين الأخذ بالتقدم والتطور العلمى والبحث هذا يظهر لكل قارى أن حضارتنا العربية الإسلامية نابعة من مصدر تقى أصيل ، مصدر إلهى هو القرآن الكريم الذى هو المنبع الصافى الذى نهلت منه حضارة الإسلام والعرب باعتباره كتاب دين ودنيا ودستور حياة ، ولقد اعترف بذلك أحمد كتاب الغرب « جاستون كارمن » فيقول أن القرآن الكريم هو منبع الدين العقلى ودستوره الكامل فقد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم ، وفي إمكاننا أن نقول أن هذه الحضارة الإسلامية نشأت من امتزاج الأسس التى لثرتها الإسلام وهذه هى حقيقة أصل الحضارة الإسلامية والعربية .

وأنه كلما تمتق الإنسان في دراسة النصوص الإسلامية والعربية التى ظهرت فيها مساهمة المسلمين في إزدهار الثقافة ونشرها والعمل على تقدم البشرية ، إزدادنا علماً بما أداه المسلمون في ميدان العلم والمعرفة وأن الحضارة الإسلامية تقوم على

مبادئ خالدة لم يصل إليها العقل البشرى من قبل ، ولم تستطع الهيئات الدولية فيما بعد أن تحقق شيئاً منها في خدمة الإنسانية .

أن الإسلام يبحث على الحضارة وطلب العلم والمعرفة بل إنه جعل من العلم أساساً لكل سلوك قويم حتى في الانتفاع بالقرآن الكريم لأنه لم ينزل للحفاظ فحسب بل جاءت آياته في مواقف دينوية لتهدى الناس إلى الصراط المستقيم ومن هنا فإنه يجب أن نقاوم الغزو الفكري المبني على أسس مادية بحتة ونحافظ على قيمنا الروحية الإسلامية .

أقوال غريبة أخرى :

يقول د. الدوس هكسلي ، أن الحضارة الأوربية قامت على التفوق المذهبي وحدة وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترف ولكنها أهملت تربية عواطفه وأخلاقه وفنائه الروحية ولم تهتم بتهديب الإنسان التهديب الروحي والقي توجده في الاسلام .

ويقول د. برنارد شو ، أن الدين الاسلامي هو الدين السماي بسبب حيوته العظيمة فهو الدين الوحيد الذي يلوح له أنه الحائز أغلبية الغيث الأطنوار النعمية المختلفة بحيث يستطيع أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان ويضيف فيقول أن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا في الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم ، ومكنا وجد تحول في موقف أوروبا من الاسلام وهما هي أوروبا في القرن العشرين بدأت تعتق عقيدة الاسلام وفي القرون القادمة قد تذهب أوروبا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة السمحاء في حل مشا كلها ويقول د. شو ، أيضاً في الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يمكن أن يقال أن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ ، ولقد بدأت أوروبا الآن تعتق الدين الاسلامي ولن يمضي القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين بالدين الاسلامي في حل مشكلاتها ويقول كذلك أنه لن يمضي مائة عام حتى تكون أوروبا ولاسيما إنجلترا قد أيقنت بملأمة الاسلام للحضارة الصحيحة .

أن الإسلام ذلك القانون الإلهي السماوي الفريد الذي لا يستطيع أحد أن ينكر عظيمته قد جعل العرب يأخذون نصيب كبير ويلعبون دورهم في الحضارة، ولقد كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة فكرة عارضت نكرة الشعور القبلي عند العرب قبل الإسلام .

أن الدين هو أهم مظهر في أية حضارة ذلك أن احتياجات الإنسان الحقيقية هي احتياجاته الروحية وأن ما يشبع هذه الاحتياجات هو أعظم الحقائق بالنسبة له ، ولذا نجد من أشد عيوب الحضارة الأوروبية الحديثة على المجتمعات الغربية وأكثر ما خطراً على رجل القرن العشرين هو جعل الأفراد عبدة للمادة وليس لله الواحد القهار وإذا كانت الأديان تبحث على طلب العلم الذي يحقق فائدة للبشرية ويؤدي إلى السكال والسمو ولا ينهى إلا عن العلوم التي تبطل أفكار الإنسان .

وقد قال جمال الدين الأفغاني عن أثر الإسلام في الحضارة . أكسب الدين عقول البشرية ثلاثة عقائد وأودع في نفوسهم ثلاث خصال ، كل ركن منها عماد لبناء طبيعتها الاجتماعية ، والعقيدة أقوى دافع للأمام إلى القسابق لغايات المدنية وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع في الفنون والعقيدة أحكم مرشد وأجدي فائدة للإنسان إلى المدينة الثابتة المؤسسة على المعارف الحق والاخلاق الفاضلة .

وقال د جان جاري جابو ، كان الدين أخلاقاً وقانوناً وفلسفة وكل شيء ولم تنفصل الفلسفة عن الدين إلا في عصور متأخرة وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فلائ للدين في الحالة الحاضرة منفعة عظيمة بل لأنه ضرورة حيوية ، لأنه وسيلة للبقاء والنماء ، وإذا نجد أي باحث في تاريخ الإسلام والمسلمين يستطيع أن يتبين ما ساهم به الإسلام في تقدم الحضارة والتي أمد بها المسلمين معظم فروع الفلسفة والعلوم والفنون ، ذلك لأن بكلية الثقافة الإسلامية تشيد على المبادئ الإصلاحية التي تضمنها الدين الإسلامي الخنيف وهي تلك المبادئ التي أرسى بها الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لتنظيم هذا العالم وإصلاحه وقيادته إلى الطريق السليم الذي يوجهه .

الدولة الإسلامية الأولى ودورها في بناء الحضارة الإسلامية :

لقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلفاء الذين جاءوا من بعده رسالة الإسلام السامية لكي ينشروها ما وسعتهم الطاقة في كل أرجاء العالم، ذلك لأن الحضارة الإسلامية حضارة حقيقية مستمدة أصولها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والتي يهنا الفرد في جنباتها وتسمد الجماعة تحت ظلها الوارفة، ولكن بعض المؤرخين حين يتحدثون عن الحضارة الإسلامية لا يريدون هذا المعنى الذي أشرنا إليه وإنما يقصدون بها ما وضعه المسلمون من أسس لبناء مجتمعهم وما ساروا عليه من أنظمة هو مصدره القرآن الكريم والسنة المطهرة ونستطيع أن نرد على هؤلاء لو أن كل منهم استطاع أن يقرأ القرآن الكريم ويفهم آياته القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ويقتفي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الراشدين والسلف الصالح يرى أن القرآن الكريم يفسر العلم ويعلى قدره ويرفع العلماء مكاناً عالياً ومعنى هذا أنه يعني بأصل الحضارة ويفبوعها الأول ولم يكن من المصادفة أن أول ما نزل من القرآن الكريم إشارة بالقراءة والقلم والعلم وهو قوله جل ثناؤه : اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرا وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم .

وأن القرآن الكريم يكثر من ذكر العلم والعلماء ويميز لنا الفرق الكبير بين العلماء والجهلاء ويقول الغريبيون أن الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر وبعبارة أخرى أن الإسلام كما هو في القرآن يتضمن مبادئ سامية كالصدق والوفاء والعدل والإنصاف والرحمة والرأفة والتعاون والتعاضد وما إلى ذلك من مبادئ أكدها الإسلام وحث عليها على نحو لا يكاد نجد له نظير في الديانات الأخرى .

لقد انتشرت الحضارة الإسلامية فيما بين المحيط الاطلسي إلى الصين ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ودخلت في حوزة الإسلام أمم كثيرة من السلالات المختلفة وصارت الدولة الإسلامية منذ القرون الثلاثة الأولى (٦٢٠ م - ١٠٠٠ م) تشمل أكثر أجزاء العالم مدنية وتقدمياً وظلت كذلك حتى تفككت وتصدت الدول المسيحية لقيادة الحضارة العالمية

ولكن شجرة الحضارة الإسلامية لانزال أصلها ثابت في أرض العروبة والإسلام وفروعها عالية في السماء تتطلع لفجر نهضة جديدة محتفظة بدين الإسلام حافظه القرآن والحديث النبوي الشريف ومتكلمة بلغة العروبة ولغة القرآن الكريم والتي تأخذ كل يوم مدتها في بلاد العالم كله الذي يتطلع إلى تعليم تلك اللغة ودراسة علومه الإسلامية .

فصل الحضارة الإسلامية :

لقد كانت الإسلامية هي أهم الحضارات الإنسانية ذلك أن الحضارة الغربية الحديثة قد استمدت من الحضارة الإسلامية والعربية أصولها الفكرية والعلمية وسارت على ضوئها في كل ميادينها ثم نجحت في كشف أسرار الكون والاكتشافات الحديثة وغيرها من معجزات العقل البشري ورغم تفوق الحضارة الأوروبية في الماديات فقد تنكرت للبعاد والأخلاق والدين والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة واعتزت بمبادئها الطاغية حتى أصبح الغرب موطن الماديات بينما للشرق موطن ومنبع الروحانيات ومنبع الحضارة العالمية ومهبط الإنسانية الأولى وعلى هذا فقد نشأ الدين في الشرق وذلك لأن الدين هو العقل ولا عقل لمن لا دين له والحضارة الإسلامية تخضع للبيئة والظروف المكان والزمان وتعمل لتحقيق رخاء الإنسان وسعادته ويعمل الإسلام على رفع القوى المعنوية وتنميتها سواء كانت قوى روحية أو خلقية أو عقلية حتى إذا تفاعلت مع القوى المادية حققت حضارة مزدهرة سامية ، ولذا فإن الحضارة الإسلامية مستمرة ومزدهرة ومتنامية زهاء أربعة عشر قرناً من من الزمان ولا شك في ظاهرة ملحوظة ولا غرابة في أن يقال العامل الجديد الذي أسهم في بناء الحضارة هو الإسلام ذلك أن الدين الإسلامي القويم المتين الذي أنزل على محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه في أوائل القرن السابع الميلادي والذي انتشر مع انتشار العروبة قد خلق حضارة إسلامية عربية ، وأن الناظر إلى الحضارة العربية لبان ازدهارها ليمجب من العمران الذي ساد كافة الأقاليم الإسلامية إلى درجة أن أوروبا كانت مبهورة ببراعة العرب في الفنون والصناعات وكانت تجارة المسلمين من المنسوجات والورق والمصنوعات الجلدية والأسلحة وغيرها رائجة رواجاً شديداً في أوروبا ، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي ، بدأ الغرب يتعلم هذه الصناعات عن العرب سواء في

فلسطين حيث جاءت الحملات الصليبية أو فصولية والأندلس وغيرها من الأجزاء الأوربية الأخرى التي انطوت تحت لواء الاسلام .

ولم يقف الأمر عند حد الفنون والصنائع ، بل إن العلوم نفسها كان الأوربيون لا يعرفوا شيئاً منها فقاموا إلى اللغة العربية فدرسوها وتعلوها وترجموا إلى اللغة اللاتينية كثيراً من كتب الفلاسفة والفلك والهندسة والكيمياء حتى كان قانون ابن سينا في الطب يدرس في جامعات أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي وهكذا نرى الحضارة أخذ وعطاء فقد أخذ العرب عن الحضارات القديمة فتقدموا بالحضارة وحلوا مشعلها وزادها اشتعالاً وبهذه سجلت القرون العشرة التي سادت فيها الأمة الاسلامية العالم بمداد من الفخار في سجل التاريخ

أن الحضارة الأوربية الحديثة هي ثمرة الحضارة العربية الإسلامية وامتداد لها إذا كان أساسها النزعة التجريبية فإن الاعتماد على التجربة والوصول إلى القوانين العامة جاء به علماء العرب الذين توسعوا في المعامل وابتكروا وسائل الاختيار وأدوات البحث وذلك في الوقت الذي كان فيه علماء أوروبا أن يكن قد وجد علماء يمحشون لإجراء التجارب حتى لا يتهمون بالسحر والشعوذة ولا يستطيعون إبداء آرائهم العلمية في حرية حتى لا تحاكمهم الكنيسة وأن تاريخ الحضارة الغربية يدل على أن رجال الكنيسة حاربوا العلم وحرية الفكر في حين أن رجال الدين الإسلامي أثنوا على العلم والعلماء ورأوه ضرورة من ضرورات العمران وشجعوا البحث العلمي ، ومن هنا فإن الاسلام دين وحضارة لا ينفصل أحدهما عن الآخر وذلك لأن الدين الاسلامي الخفيف يحض على العلم وطلبه ففي القرآن الكريم آيات كثيرة يخصص على ذلك وفي الأحاديث النبوية الكثير من الأحاديث التي تدعو إلى طلب العلم وترفع منزلة العلماء والاسلام ذلك الدين القيم وإن كان يبحث على طلب العلم والتمرس به ولكنه من جهة أخرى يأمر بالتفكير في خلق السموات والأرض ومن ذلك فإنه يجب علينا نحن العرب والمسلمين أن نعتني بإبراز المقومات التكبري والمعالن البارزة لحضارتنا الاسلامية والعربية العريقة ولا شك أن الوقت قد آن للعناية بهذه الناحية .

الحضارة الإسلامية في نظر الغرب :

لقد أنقى كثير من علماء الغرب ورجال فكرها على الحضارة الإسلامية واعترفوا بفضلها على الحضارات العالمية وكما للدين الإسلامي الحنيف من دور في بناء الحضارة الحالية فيقول د. آدموند بورك ، أن القانون الإسلامي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه وهو قانون نسيج بأحكام نظام حقوق وأفضل قضاء على وأعظم تشريع عادل ولم يسبق قط للعالم إيجاد مثله ، وقال عالم آخر أن الإسلام دين إنساني اقتصادي أدبي ، ولم أذكر شيئاً من قوانينه الطبيعية الوضعية إلا وجدته مشرعاً فيه وبحيث عن تأثير الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملاها شجاعة وشهامة ووداعة وكرماً وجمالاً ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحكم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر والكذب .

وقال د. فاليري ، إن الإسلام عجيباً في سهولته : صريحاً في فروضه وكان هذا السبب في انتشاره بين الشعوب التي اضطربت نتيجة لما أصابها من الشك المضني في عقائدها الدينية وكان هذا السبب في انتشاره المتواصل بين الأمم في آسيا وأفريقيا وغداً في أوروبا وذلك لنفوذته إلى أرواحهم .

وقال أرنولد توينبي ، لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل هي رسالة للعالم أجمع ، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعو الناس كلهم كافة إلى اعتناقه .

وقال د. جوستاف لوبون ، القرآن قانون ديني وسياسي واجتماعي وأحكامه نافذه منذ قرون كثيرة والمسلمون أخوة لأنهم يعبدون إلهاً واحد وشريعتهم واحدة ، وقاله جوتنه ، القرآن هو الكتاب الذي سوف يبقى تأثيره إلى الأبد لأن تعاليمه عليية مطابقة للحياة الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بتعاليم ماجاء في كتابهم .

وقال د. كارليل ، أن علوية الاسلام في حقيقته العالمية فهو حافز بالعدل

والاخلاص والدعوة التي بلغها محمد صلى الله عليه وسلم حق وحقيقة ، وقال عالم فرنسي آخر ، محمد خلف للعالم كتاباً هو آية للبلاغة وسجل للأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكشوفة حديثاً أو المكشوفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن الكريم وبين القوانين الطبيعية ، ذلك لأن الحضارة الإسلامية العربية حضارة أصيلة لم تقم على أنقاض غيرها من الحضارات إلا بالمقدار الذي تحتمه نظرية التزاوج والتلاحم بين الحضارات المشتركة للإنسانية جمعاء والذي لا بد منه في كل الحضارات ، لقد هضمت الحضارة الإسلامية حضارات شتى وطبعتها هي بظايعها والقول بعدم أصالتها جهل بحقيقة الدين الإسلامي . فهي قد أعطت للإنسانية مفهوماً جديداً عن الكون والحياة والإنسان . وأصول الحضارة الحققة والعقل ومدى قدرته ، بل إن الحضارة الإسلامية تمتاز بالعرف الزماني والمكاني ومن هنا جاءت كل قوانينها عامة وشاملة وباقية عاملة لكل الناس ، شاملة لكل فنون الحياة وقضاياها وباقية إلى يوم القيامة .

والحضارة الإسلامية هي أطول حضارة ظهرت على الأرض ولم تنزعيمتها ، ذلك لأن ما حققه أسلافنا منذ إحدى عشر قرناً نستطيع نحن أن نواصل السير في نفس الطريق وأن نصل الماصى بالحاضر ونعد أنفسنا للمشاركة في بناء صرح حضارتنا العربية الإسلامية .

ادوار الحضارة العربية الإسلامية :

في الحقبة التاريخية التي تبدأ من القرن الثامن الميلادي وتستمر حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر الميلادي والتي فيها احتك الإسلام بالغرب سياسياً وحربياً وأسس مركزاً لحضارته في جنوب أوروبا وغربها الجنوبي ووقف فيها موقف المعلم يلقتن أوروبا حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراث العرب بتراث غيرهم من الأمم التي انطوت تحت لواء الإسلام ، وكان موقف أوروبا في ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية اليوم ، فقد نبغ فيها مترجمون ، نقلوا جوانب من التراث الإسلامي إل لغاتهم اللاتينية ،

وكان للمؤلفات الإسلامية مكان الصدارة في الجامعات الأوروبية القديمة مثل باريس وغيرها من الجامعات الأوروبية ، وظهر أثر الفكر الإسلامي وترجمت روائع الأدب العربي ، وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الإسلام وتاريخه وتاريخ العرب والمسلمين في العلوم ، ودفع الكثير من الأجانب إلى الإعجاب به والإشادة بمكانته ، كما تحدث كثيراً من الباحثين الأجانب عن مآثر العرب على حضارتهم ، من الأبحاث التي كتبت عن تاريخ الطب عند العرب وتطوره وأثره في تطور الطب الحديث وبخاصة ابن الهيثم الذي تتلذذ عليه الكثيرون من علماء أوروبا وترجمت مؤلفات غيره من علماء العرب إلى اللغة اللاتينية واتخذت مراجع أساسية للدراسة في معظم جامعات أوروبا ومعاهدها العلمية ، وهذا لا يجعل مجالاً للشك في أن أصول الحضارة الأوروبية مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية ، وفي ذلك يقول د جوستاف لويون ، لقد كان أثر حضارة المسلمين في الغرب قوياً في النواحي العلمية والأدبية والفنية ، ففي القرن السابع الميلادي هب المسلمون من شبه جزيرة العرب ليكونوا دولة عظيمة مترامية الأطراف فسارت الحضارة في ركابهم أينما حلوا وصاحبهم المدنية كيفما اتجهوا ، فلم يقتصر أثرهم الحضاري على الشرق وإنما تأثيرهم في الغرب الأوروبي لا يقل خطورة وأهمية عن أثرهم في الشرق .

طرق انتقال الحضارة الإسلامية :

لقد سلكت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق عدة معابر منها ثلاث معابر كبرى هي الشرق العربي زمن الحروب الصليبية ثم صقلية حيث نشأت دولة عربية إسلامية ظلت حضارتها قائمة زمناً طويلاً والمعبر الثالث والأندلس زمن الخلافة الأموية

١ - المعبر الأول سوريا والشرق العربي :

كانا ذا أثر فعال في هذا الميدان فالحروب الصليبية قد صاحبها بعض النشاط الفكري والحضاري وأنساب بعض الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغات الغربية ، وأثرت الحروب الصليبية في تطور فن القتال عند الغربيين ولاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع واستعمال المجانيق واستخدام الدروع للفرسان والخيول

والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل ، وكذلك ففي عصر الحروب الصليبية انتقلت كثيراً من النباتات من الشرق إلى أوروبا وانتشرت أيضاً في الغرب العقاقير والأصبغ والتوابل الشرقية كما كثر استعمال وصناعة الأقمشة التي تصنع في البلدان الشرقية مثل المولدين نسبة إلى الموصل والدمشق نسبة إلى دمشق وغيرها من فنون الحضارة والتقدم والتي انتقلت إلى أوروبا عن طريق الشرق ولقد اقتبس كثيراً من الفرنجة الذين عاشوا في الشرق كثيراً عن عادات المسلمين وتقاليدهم في اللبس والمأكل وآداب الحكم .

٢ - المعبر الثاني : جزيرة صقلية :

لقد انتقلت حضارة الإسلام وثقافته إلى غرب أوروبا عن طريق صقلية حيث صار للثقافة العربية الإسلامية شأن كبير ذلك أن المسلمون تركوا لأهالي صقلية حضارة زاهرة وراقية أثرت في أوروبا ، ولقد أثرت اللغة العربية في اللغة الإيطالية فقال د ريبالدي ، أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في اللغة الإيطالية والتي تفوق الحصر قد دخلت إلى اللغة الإيطالية لا عن طريق الاستعمار والغزو كما هو في العصر الحديث ، بل دخلت عن طرق الحضارة التي كثيراً ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة ولقد اضطرت مدينة جنوة إلى أن تؤسس مدرسة عام ١٢٠٧م وذلك لتعليم وتدرّس اللغة العربية لغة الحضارة العالمية ، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة وفي اللغات العامية في جميع المدن الإيطالية التي كانت لها علاقات تجارية واقتصادية مع بلاد الشرق الإسلامي وصقلية ، فقد دخلت إليها هذه الألفاظ والكلمات مع التجارة ، ولانزال الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية في اللغة الإيطالية من أصل عربي .

لذا فإن الحضارة العربية الإسلامية التي هبت على ديار الإيطاليين عليهم السلام الكثير المفيد والنافع عن هذه الحضارة والزائر اليوم لمكتبة الغاتيكان يجد الألوف المؤلفات من المخطوطات العربية القديمة وهي كلها من تأليف علماء عرب ومسلمين نبغوا في مختلف فنون المعرفة الإنسانية ، ولقد حل المسلمون إلى إيطاليا كثيراً من مظاهر فنهم الاسلام الراق والرائع المتمثل في مختلف الفنون والتي تأثر بها

الفن الإيطالي بها وأخذ عنها الشيء الكثير والتي أدت إلى ظهور عصر النهضة في المصور الوسطى ومن هنا نرى أن جزيرة صقلية كانت تمثل مصيراً حضارياً إسلامياً ذو أهمية بالغة وفعال في نقل تراث المسلمين الراقي إلى دول غرب أوروبا .

٣ - المعبر الثالث : الأندلس :

أما الأندلس فدورها في دفع الحركة العلمية والنهضة الأوربية فهو دور يفوق كل الأدوار ذلك لأن الأندلس أصبحت في عصر حكم الدولة الأموية موطناً للعلوم والعلماء ووفد إليها كثيراً من طلاب أوروبا بعد أن صار فيها عدد ضخم من المستشفيات والأطباء والصيادلة ورجال الكيمياء وعلماء النبات والرياضيات والفلك والفلسفة وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزاً للعلوم يشع منها العلم إلى كل أرجاء القارة الأوربية ولقد قام الخلفاء بتشجيع العلماء على مواصلة البحث العلمى والتأليف والترجمة حتى بلغ عدد الكتب الموجودة في مكتبة جامعة قرطبة نصف مليون كتاب وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين كتاب كل كتاب منها خمسون صفحة ، وكان شغل الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة هو جمع العلماء من شتى الأقطار وجمع الكتب من التراخي المتفرقة وتأسيس المكتبات العامة والخاصة وبذلك فقد تمت النهضة الثقافية والعلمية والأدبية في ديار الأندلس ومع ذلك فإن كثيراً من علماء الغرب لا يذكرون فضل الأندلس الحضارى وفنل علماء العرب الذين عاشوا فيها وأدوا خدمة جليلة للحضارة الإنسانية .

وفى ذلك يقول أحد علماء الغرب ، أن الخدمات العلمية التي أداها المسلمون للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين وأن البحوث الحديثة دلت على كثرة أعتنائنا بالعلماء العرب والمسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى وأن المسلمون لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها وأضافوا إليها الكثير في ميادين المعرفة الهامة والمختلطة ، ولقد كانت الحضارة العالمية الإسلامية حلقة الإنصال بين حضارة اليونان وحضارة اليوم الحديثة ، ولولا ما بذله المسلمون من غناية في حفظ وتطوير تراث الأقدمين

من علماء اليونان والهند ومصر والسران ، وترجمته إلى اللغة العربية لصناع جزء كبير من مقومات الحضارة الحديثة التي ينعم بها العالم اليوم .

ولقد انتقلت الحضارة الإسلامية من دمشق والقاهرة وبغداد وقرطبة وغرناطة إلى أوروبا فأخصبت أرضها بثقافة العلم الذي أخذ يزداد خلال الأجيال الثقافية ، وأقبل الأوروبيون الذين عرفوا قدر تلك العلوم الإسلامية ، وقدم أبناء أوروبا إلى الجامعات الإسلامية في طليطلة وغرناطة وأشبيلية ، يدرسون أولاً باللغة العربية ثم ينقبون عن أئمن كتب العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والفلكية والكيميائية وغيرها من مؤلفات العلماء المسلمين مثل ابن سينا ، جابر بن حيان ، أبو بكر الرازي ، الزاهري ، ابن رشد وابن ميمون ، وغيرهم من علماء المسلمين الأفاضل ، الذين أصبحت مؤلفاتهم تدرس في جامعات أوروبا ومدارسها ولقد شجع أمراء وحكام أوروبا ترجمة الكتب العربية الإسلامية إلى اللغة اللاتينية والدراسة في المعاهد والجامعات العربية لإنقاذ اللغة العربية لأن هذه اللغة هي لغة الحضارة وصاحبة السيادة العلمية .

وكذلك التمكن من الدراسة بها والترجمة عنها ولم تكن الترجمة من العربية إلى اللاتينية مقصورة على مادة محددة ، ولكن علماء أوروبا الذين تعلموا في الجامعات الإسلامية ترجموا كل ما وقعت عليه أيديهم وأحسوا بفائدته لهم وقدرتهم على الإضافة إليه وتطويره وقد كان ذلك حدثاً علمياً خطيراً .

والأمر الذي لا شك فيه أن الفضل الأكبر في تقدم غرب أوروبا الحضاري يرجع بالدرجة الأولى إلى مسلمي الأندلس ، فقد تولوا تقديم خلاصة الفكر الإسلامي في العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى أبناء الغرب ، فضلاً عن تعريفهم بالكثير من تراث الإغريق الذي اندثر ولم يبق منه إلا الذي ترجم إلى اللغة العربية بمعرفة المسلمين أنفسهم ، ذلك أن علماء الأندلس أنصرفوا إلى الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون ومختلف المعارف الإنسانية ، فابتكروا ووجدوا في هذه الميادين المختلفة مما أتاح لأوروبا مورداً عذباً استساغت شرابه وظلت تهل منه حتى النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر الميلادي ، بل بعد ذلك

بكثير وقد وصلت الحضارة الإسلامية في ذروتها فساعد ذلك على استفادة الأوربيين من ذلك التراث وقد قدمت الأندلس للعالم الكثير من العلماء وليس الأندلس فقط بل أصبحت البلاد الإسلامية الأخرى وخاصة العواصم الإسلامية كبغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وتونس ، تدرس مواد العلوم الانسانية الأدبية والكونية وقد أعترفت بهذا الكثير من علماء الغرب .

وقد قال أحد رؤساء الاديرة أنه شاهد أثناء إقامته بالأندلس طلاباً من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، يترددون أفواجا إلى المراكز العلمية العربية ، وأضاف يقول : العلم قيمة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية الإسلامية على العالم المعاصر ، وقال أحد علماء المسلمين أن أوروبا في ذلك العهد ، عهد الحضارة الإسلامية في الأندلس ، كانت غاصة بالغابات الكثيفة وذلك من إهمال الناس للزراعة وكانت المستشفيات قد كثرت حول المدن فكانت تنشر منها روائح فتاكة وكانت البيوت في باريس ولندن تبنى من الخشب والطين ، وكانت الجبال منتشرة في أوروبا كلها وعمتها الخرافات والأوهام وقد سيطر الجهل على طبائع أهل هذا العصر .

وقد اعترف أحد علماء أوروبا فقال : أن التفكير الاخلاقي والثقافي والعلمي الكبير الذي ينعم به العالم اليوم تدين به للإسلام وحضارته الزاهرة منذ أن كنا نساfer إلى العواصم الإسلامية وإلى أساتذة المسلمين تدرس عليهم الفنون والعلوم والفلسفة وذلك منذ أكثر من ألف عام وقد ارداد تدفق طلاب العلم من دول غرب أوروبا إلى الأندلس ونشطت حركة الترجمة .

خصائص الحضارة العربية الإسلامية :

أن الحضارة الإسلامية العربية قامت على أساس المذهب الانساني ، وقد اقتبس الغرب من المسلمين ذلك المذهب بفضل ما نقل عنهم من العلوم والفنون وذلك أثناء احتكاك الغرب بالشرق الإسلامي لعدة قرون خلال العصور الوسطى وأوضح دليل على تأثير الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي في أوروبا ، التشريع الحديث لفرنسا فإنه متأثر بالتشريع الذي كان سائداً في الأندلس والذي

يقوم على أساس مذهب الإمام مالك بن أنس وأيضاً بقاء عدداً من المفردات اللغوية العربية حتى الآن في اللغات الأوروبية وبقاء أسماء بعض العلوم بأسمائها العربية الإسلامية .

أن الحضارة العربية الإسلامية بمخائصها الإنسانية فرضت نفسها بفضل مالها من خصائص ومقومات لا تشاركه فيها أية حضارة أخرى ، ذلك لأنه في الأندلس أصبح للأندلس بهذه الحضارة مكاناً مرموقاً بين بلدان العالم الأوربي فقد أقيمت أوروبا تقلد المسلمين أبواب هذه الحضارة وحاملو لوائها في كل شيء وتفتق أثرهم في كل ما يفعلون وأخذ شباب أوروبا يفد إلى الأندلس ، ولم تتجه أوروبا إلى الأندلس وحدها فحسب بل اتجهت إلى جميع بلدان الشرق الإسلامي وقامت سفارات إسلامية إلى أوروبا وجاءت سفارات أوروبية إلى بغداد وغيرها من العواصم الإسلامية ، وبدأ عهد الإعجاب بالشرق والشرقيين ، هذا الإعجاب الذي تطور إلى درجة أن الشباب في أوروبا هجر لغته القومية وثقافته الدينية وعشق الثقافة الإسلامية ، واللغة العربية ، ولقد ارتفعت أصوات الرهبان بالشكوى من جراء هذا الذي يدور في بلادهم ، ذلك لأن أوروبا قد وجدت في أخلاق المسلمين ومعاملتهم لغيرهم من ذوى الديانات الأخرى ، مازاد في إعجابهم وتقديرهم للإسلام والمسلمين وتطلعهم إلى الاعتراف من مناهله وتزودهم من ثقافته ، فقد تولد عن السياسة الإسلامية المتسامحة أن ازداد الإعجاب الكبير وبالحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي الذي استطاعت أوروبا أن تنقله عن أبناء الإسلام أصحاب الفضل الأكبر في التقدم العالمى .

أوروبا تنهل من حضارة الاسلام :

لقد أقيمت أوروبا على الحضارة العربية الإسلامية تنهل منها ومن كل علومها فنجد أن الطب العربى ، قد أثر في أوروبا ، ذلك لأن أوروبا قد وجدت نفسها لأول مرة في تاريخها ترى مدرسة عليية للطب في إيطاليا وسمعت كلمات عربية طيبة ما تزال محتفظة بعروبيتها حتى اليوم في اللغات الأوروبية المختلفة مثل الصودا والشراب والأكسير ، وغيرها من الكلمات الطيبة المختلفة ، ورأت أوروبا وسمعت لأول مرة أبا بكر الرازى أول من فرق بين الحصبة والجدرى ، وابن

سيفنا ، أول من اكتشف جذرى السل وأول من زاول العلاج النفسى مستعيناً بالأياماء قبل أن يستعين به علماء أوروبا عام ١٧٢٥ م ورات أوروبا كتاب ابن سينا قانون الطب مرجعاً علياً لأطبائها فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أساساً لتبرامج الدراسات الطبية فى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ورأت أوروبا طبيباً عربياً مسلماً هو ابن الخطيب المتوفى عام ١٢٥٠م وهو أول من اكتشف السر الحقيقى لا ينتشر وباء الطاعون فى أوروبا خلال القرن الرابع عشر الميلادى فى العصور الوسطى ، ولم يكن هذا السر الذى اكتشفه ابن الخطيب للمرة الأولى فى التاريخ إلا عدوى الطاعون كما رأت أوروبا العالميب الجراح الأول فى العصور الوسطى وهو أبو القاسم الزهراوى القرطبى ، المتوفى عام ١١٠٣ م والذى ترجمت كتبه فى الجراحة إلى اللغة اللاتينية واعتمدت عليه فى تدريس الجراحة فى جامعاتها ومنها جامعة اكسفورد حتى عام ١٧٧٨م .

ورأت أوروبا أبرع الرياضيين الذين تفخر بهم الدولة الاسلامية وتدين لهم أوروبا بالفضل ومنهم العالم الرياضى المشهور د ابن موسى ، الذى استطاع أن يستقبل الأوتار بالمستقيمات فى علم حساب المثلثات وأن يكتشف المعادلات ذات الدرجة الثالثة ، وجاءت المدنية الإسلامية موجه إلى أوروبا وألقت الدرس الأول فى الكيمياء بلسان أبو الكيمياء د جابر بن حيان الذى اكتشف عن بعض الأحماض مثل حامض الكبريتيك والذى اكتشفه د الرازى ، وحامض الأزوتيك والمعروف بالماء الملكى الذى يذيب الذهب وهو مزيج حامض الأزوتيك والكورايديريك ، ولم يفث المدنية الاسلامية أن تعرف صناعة الثلج التى لم تعرفها أوروبا حتى النصف الأخير من القرن العادى عشر ، كما أنها - لم تعرف كلمة كيمياء إلا عن المسلمين ، وقد شهد بأستاذية المسلمين والعرب فى الكيمياء والصيدلة كثيراً من العلماء الأوربيين :

وقد بدأت أوروبا أبحاثها الكيميائية على أساس علم الكيمياء الذى وضعه المسلمون وهو على أساس سليم من الحقائق والنظريات وفى الكلمات العربية الكيميائية التى تسربت إلى اللغات الأوربية عن العربية كالكحول والأثير وغيرها من المصطلحات والأسماء العربية التى ازدهرت وتألفت فى وقت كانت أوروبا فيه

تخبط في الظلمات ولا تكاد ترى الضوء وهذا دليل قاطع على ما تدين به أوربا وجامعاتها للدنية الإسلامية العربية .

ولقد كان مفكرى التراث الإسلامى على اختلاف مواطنهم يعيشون في بيئة فكرية واحدة هى بيئة القرآن الكريم وهذا أمر له أهميته لأن هذه البيئة العقلية قد أعدت مفكرها إعداداً يخالف ما كان عليه أهل الغرب في ذلك العصر من تهيئة ذهنية ونفسية ، فقد كان أهل الغرب في ذلك الحين، وأقصد العصور الوسطى هصور الجهالة المسيحية واقعين تحت سيطرة رجال الدين والكنيسة .

القرآن الكريم يدعو إلى العلم :

أما أهل الإسلام وقد بينا أنهم يفتنون لمواطن عدة فقد كانوا يعيشون في جو قائم على إعلاء أمر العقل ورفع شأنه . وقد سار القرآن الكريم بالفكر البشرى قدماً إلى الامام معتمداً على ما فطر عليه الإنسان من اتجاه نحو العقل والنظر فهو دين فطرة في كل شيء . والذي يدرس قواعد أحكامه وأصول آدابه وشراعه يرى أنها تطابق مقتضيات الفطرة البشرية ، ذلك أن الإسلام يخالف غيره من الأديان في نظرة إلى العقل لأنه يدعو إليه في كل سورة من سور القرآن الكريم . بل إنه يحض عليه ، فقد تكرر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن الكريم حوالى ٧٦٥ مرة وحث على النظر فيما يتعلم بالإنسان من آيات كثيرة ولقد أثبت التقدم الفكرى أن القرآن الكريم كتاب دعا صراحة إلى دراسة مختلف العلوم وأنه حوى أصول هذه الدراسات في مختلف قطاعات العلم وبلغ عدد الآيات الكونية في القرآن الكريم حوالى ٧٥٠ آية تشتمل مختلف العلوم ، ونجد أنه في كل علم جاء القرآن الكريم بأكثر من آية مثل علم الفلك والطبيعة والجغرافيا والنبات والحيوان وعلم الصحة الغذائية وخلق الإنسان والخصب وعلم الطب النفسى . وعلم الوراثة والكائنات الحية . وماوراء الطبيعة وعلم الاشعاع الذرى والانفجار الذرى وأيضاً أبحاث الكواكب والتاريخ الطبيعى والطيور والدواب . والكيمياء وأيضاً بالإضافة إلى الآيات العلمية التى يوزعها القرآن الكريم وأوردها كثيراً ، نراه قد آثار الفكر ودعا إلى التفكير فيما عرضه من أدلة .

الاحاديث النبوية والدعوة إلى طلب العلم :

لقد كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أول من استجاب لداعى القرآن الكريم فاهتم بفشر الدعوة الإسلامية بشقيها الدين والعلم، واستقنض الهمم للدراسة والبحث وجمع الرسول من يجيد الكتابة لتسجيل القرآن الكريم وقد طالب الرسول الصحابة الكرام بأن يتعلموا لغات الأمم غير العربية ودراسة اللغات السريانية والعبرية وهذا يظهر مدى اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتعلم وقد بدأ الصحابة بأن تعلموا بعض اللغات الأجنبية كالسريانية وهذا يظهر مدى استجابة المسلمين لطلب العلم ، ولم يترك الرسول فرصة إلا أوضح فيها مدى اهتمامه بالعلم ورغبته في أن يتعلم المسلمون ، وأن دعوته صلى الله عليه وسلم كانت للعلوم وليس للشعر والبلاغة أو القصص ، والاحاديث النبوية الشريفة التي هدف رسول الله من ورائها إلى طلب العلم والتعلم كثرة ، الأمر الذي جعل المؤرخين يعترفون أن نبي الإسلام قد أوصى بالعلم بما لم يوصى به دين آخر غير الإسلام ، وقد رفع الرسول الكريم في أحاديثه النبوية قدر العلماء .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة ربهم وأحاديث نبيهم فأقبلوا على العلم ، فعملوا القراءة لقراء ، قرأهم الكريم وتعلموا الكتابة ليفشروا دينهم ولغتهم ، وتعلموا لغات أعدائهم ليأمنوا مكرم وشرم ، وكان العلم غايتهم وقام الرسول يدعوا الصحابة إلى العلم ، ولم يقتصر علم الحقيقة الأولى من علماء الصحابة على التفقه في أمور الحديث بل كانوا أصحاب علوم مختلفة، ولما زادت فتوحاتهم الإسلامية وازداد انتشار الإسلام زادت الرغبة في تعلم اللغة العربية لآبناء سكان البلاد المفتوحة ليعرفوا شئون أمور دينهم الجديد وزاد بذلك علماء الإسلام الذين كانوا لابد أن يحيطوا بلغات البلاد المفتوحة ، ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى وحد بين مكان العبادة والعلم ، فاتخذ الرسول الكريم من مسجده الذى بناه بالمدينة المنورة في أول عصر الدعوة الإسلامية مكاناً للتعليم ، فكان صلى الله عليه وسلم يجمع المسلمين ويعلمهم أمور دينهم ويبصرهم بأمور دنياهم ولم يجد المسلمون أية صعوبة في إيجاد أمكنة للتعليم .

الفكر العلمى الاسلامى :

ولقد زاد تقدم علماء الإسلام العلمى وحبهم للعلوم ونشر الإسلام العلم بين أتباعه ونشروه هم بالتالى فى مختلف بلاد العالم وأقاموا دور العلم الكبيرة ، بل أن أول جامعة علمية فى العالم بناها المسلمون كانت فى عام ٢٤٥ هـ أقيم فى مدينة فاس د مسجد كبير وكباقي المساجد لم يخصص للعبادة فقط بل كان دار علم يتلقى فيها الطلبة من كافة البلاد مختلف العلوم التى لم تكن قاصرة على القرآن وعلم الحديث والتفسير والفقه وإنما كان يدرس فيها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم د جامعة القرويين ، وهى أول جامعة اسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لسكافة المراحل ، بل أنه أول معهد علمى أقيم فيه مساكن للطلبة الغرباء وفى ذلك يقول أحد رجال الغرب د دلفان ، أن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة فى الدنيا ، وأن أقدم جامعة فى العالم ليست فى أوروبا كما كان يظن العالم بل فى أفريقيا فى مدينة فاس عاصمة المغرب وقد تخرج فى هذه الجامعة الأم عشرات من الطلبة الأجانب الأوربيين من غير المسلمين ويسجل التاريخ للمسلمين أنهم كانوا أصحاب رسالة ومن أسباب النهضة العلمية التى شملت أوروبا بعد الفتح الإسلامى لبعض الأجزاء من هذه القارة ، ويعترف بذلك أحد طلاب الغرب لأحد زملائه فيقول لقد تعلمت الكثير من أساتذتى العرب المسلمين الذين أنت أيضا تعلمت منهم الشيء الكثير أيضاً ، ولكن ما تعلمته أنت يختلف عما تعلمته أنا من المعارف والعلوم .

ويقول أحد علماء الغرب أنه ينبغي علينا أن ننظر إلى المسلمين باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية وأنه لولا المدينة الإسلامية فى الأندلس لتأخرت المدنية الأوربية قروناً عديدة ، وأنه لو اتبحت لجيوش المسلمين أن تصل إلى قلب أوروبا لتقدمت أوروبا قروناً أخرى كما يشهد بذلك علمائهم ولقد اعترف عدد كبير من مؤرخى العلم الأجانب بفضل علماء المسلمين كابن سينا د وابن الهيثم ، والبيرونى ، والمكندى ، والغافقى ، والبغدادى ، والقزوينى ، وابن مسكويه ، والجاحظ ، والحازن ، وجابر بن حيان ، وابن النفيس ، ابن البيطار ، داود الانطاكى ، الادريسى ، ابن ماجد ، الدينورى ، الصيرفى ، ابن حمزة ، الرازى ، القندسى ، الفرغانى ، الخوارزمى ، موسى بن شاكر ، وغيرهم

الكثيرين من علماء المسلمين والذين ظلت مؤلفات هؤلاء العلماء ، والمراجع المعتمدة في جامعات أوروبا كلها حتى القرن السابع عشر الميلادي .

وفي ذاك يقول أحد علماء الغرب ، أنه لولا أعمال العلماء المسلمين العلمية الرائعة لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدوا من حيث بدأ هؤلاء المسلمون ولتأخر سير المدنية العالمية لعدة قرون ، ويقول عالم آخر أنه كنا قد اعتقدنا أن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية قد حسبنا أنها من عندنا وإذا بالمسلمين قد سبقونا إليها ، وبهذا فقد ظلت الأمة الإسلامية العربية حاملة لواء النهضة العلمية لعدة قرون طويلة في وقت كانت ما تزال فيه أوروبا غارقة في الظلام .

ولقد أهدى الفكر العلمي الإسلامي في العصور الوسطى الإسلامية الزاهرة إلى الإنسانية كثيراً من مظاهر التقدم والرقى والحضارة والرفاهية كما أهداها مصلحتها الفارابي وابن سينا وغيرهم الكثير من العلماء ، ولو قدر لهذه النهضة العلمية العارمة أن تستمر في عنفوانها وانتشارها لكانت لهذه النهضة التي تليها بها أوروبا في هذه الأيام من نصيب أمتنا العربية الإسلامية ولتقدمت على وضعها الحال عدة قرون .

ولكن بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقعت تحت سنايك الغزاة من المغول والتار وسقطت الأندلس الإسلامية الأموية بعد أن قسمت إلى دويلات صغيرة في يد الفرنجة وتداعت دويلات المشرق والمغرب العربي واحدة بعد الأخرى تحت وطأة الاستعمار التركي ثم الاستعمار الغربي، ومضت أوروبا في عصر النهضة الأوروبية في الوقت الذي أخذت فيه شمس الحضارة العلمية العربية الإسلامية تميل إلى الغروب ، وبدأ أمدما العال في الانحسار بعد أن جعلت أوروبا تغرق من سباتها الطويل لتصحو فتتلقى شمس الحضارة العربية الإسلامية وينعمرها فيض العلم العربي الإسلامي ، فقد شعر الأوروبيون بتخلفهم عن المسلمين والعرب وحاجتهم إلى الاعتراف من هذا المعين العلمي الجديد .

فبدؤوا في ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وبدأ ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي وولدت في الوقت نفسه جامعات في أوروبا ، منها جامعة باريس ،

أولاً ثم جامعة أكسفورد وكامبريدج ثم جامعات إيطاليا وألمانيا وغيرها من بلاد أوروبا ، وظهر عدد من العلماء كان لهم أثرهم في إنهاض الفكر العلمي الأوروبي .

ثم بدأ عصر الاستعمار والرحلات العلمية في القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم بدأ يسطع في سماء أوروبا علماء النهضة العلمية الأوروبية واتسعت آفاق المعارف العلمية وزادت فروع العلوم الطبيعية ولقد أصبحت العلوم العربية هي الأساس القوي الذي تقوم عليه العلوم الأوروبية وفي ذلك يقول محمد إقبال شاعر باكستان :
« أن العلوم الأوروبية الحديثة ما كانت لتظهر وتنتشر ما لم تكن قد قامت على أساس العلوم التي تناولها وعالجها علماء المسلمون وقد دلت الكتب التي ترجمت من العربية إلى اللاتينية بصدق على الأثر الطيب الذي تركه المسلمون في مجال العلوم والثقافة وكل فروع المعرفة .

ولقد كان فضل المسلمين وعلومهم على أوروبا كبير إذ جاء المسلمون بمبدأ جديد في البحث هو مبدأ يتفرع من الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث والذي بدأه المسلمون ثم مالوا إلى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس العلوم ، وأن الإسلام وحضارته الإسلامية أعطت العالم خلاصة ثمارها وأن تلك الصفة التي اتصفت بها مبادئ الإسلام هي التي جعلته يستقبل ضروب المدينة ، ولا ينافيها بل يقبلها بصدر رحب وقد قال المستشرق الفرنسي د هنري لاوس ، في كتابه الثقافة الإسلامية أن وحدة الثقافة الإسلامية تقوم على أساس وحدة العقائد الإسلامية ، وما كان الانقسام عند المسلمين إلا في الفروع ومهما يكن من تأثير العنصر الديني في الثقافة الإسلامية ، فإن الإسلام ليس فيه ما يمنع البحث العلمي ، ولقد كانت اللغة العربية من أهم دواعي وحدة الثقافة بين المسلمين ومن أهم أسباب تفوق هذه اللغة هي أنها لغة القرآن الكريم الذي يجتمع للمسلمون عليه ولغة الدين ولا بد من أجل فهم القرآن الكريم والحديث النبوي من معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة .

وعما يدل على تأثر جامعات الغرب بجامعات الشرق الإسلامية ، من أن السلطات الدينية اهتزت وعلماء اللاهوت ثاروا في وجه الذين نقلوا إليهم شروح ابن رشد

وسائر الفلاسفة العرب ، واستصدروا من البابا اسكندر الرابع خلال ست سنوات أو سبع سنوات أربعين أمراً بتحريم فلسفة العرب والمشتغلين بها وهذا يدل على تغلغل أثر المسلمين في الثقافة الغربية ، تلك الثقافة التي تدفع إلى حرية الفكر والانطلاق وراء ما هو محسوس وملحوس بعيد عن الغموض ولكن هناك بعض الأوربيين الذين يقولون أن المسلمين كان دورهم في الحضارة الانسانية دور النقل والنسخ عن مؤلفات غيرهم وبخاصة اليونان والإغريق وهؤلاء لا نرد عليهم ، بل نترك واحد من أبناء الغرب هو المستشرق الفرنسي « سيديو » يقول أن من يزعم هذا الزعم في الوقت الحاضر ليس إلا جاهلاً ، بل أنه يشكر لمدرسة بغداد الشكل الذي خلقتة في علم المثلثات الكروية فضلاً عن حفاظها لأهم مؤلفات علماء الاسكندرية وإضافة العرب إلى علم المثلثات مالا ينكره عاقل منصف وأدخلوا عليه تحسينات كثيرة وماذا نقول في علم البصريات وما صنعت فيه وأدخله عليه الحسن بن الهيثم فقد امتاز علماء العرب بالغوص في أشد المسائل صعوبة وتحقيقاً .

وكان للعرب فضلهم على كل البلاد التي دخلوها فقد عمروا بلاد الاندلس ومصر وفارس والشام وشمال أفريقيا ولقد برع العرب في مختلف الصناعات وكانت لهم صناعات متفوقة شهد لهم العالم في صنعها ، إذا كانوا يستغلون ثروات البلاد الطبيعية ويستخرجون منها الفضة والحديد والنحاس وغيرها من المعادن مما يؤكد قولنا في حيوية العرب في مجال الحضارة أنهم لم ينقطعوا لحظة عن أداء رسالتهم الخالدة والحضارية وقاموا بدورهم الثقافي قروناً طويلة .

لقد ضاعت بلاد كثيرة من أيدي العرب والمسلمين وخاصة تلك البلاد التي تمنا بدراستها في الثلاثة فصول السابقة في أوروبا ، ولكن المسلمون والعرب لم يضيعوا لأن حيويتهم وإيمانهم بدينهم وبأنفسهم أكبر من أن تتأثر بالحوادث فقد كانت أوروبا رغم ظروف ضعفهم تتجه إلى العرب والمسلمين متقبّة عن كنفهم في شتى العلوم ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سينا وابن رشد وغيرهم من علماء العرب ، ولقد وجد علماء أوروبا عند المسلمين المعارف التي

مكنتهم من متابعة السير في خطى الحضارة والعرب هم الذين وضعوا أوروبا على أول طريق التقدم الحضارى الحديث وزودوها بأدوات النجاح في الوصول إلى الغايات الحضارية ، ولقد اعترف كما سبق ذكره كثيراً من علماء المنصفين بأن الغرب استمد معارفه وفنونه من موارد العلوم الاسلامية والأدبية والكونية ، ولم يكن فضل الاسلام على أوروبا فقط من ناحية العلم بل كان له الفضل في نهضتها الحديثة .

وقال د بريغوت ، لم تكن إيطاليا مهد حياة أوروبا الجديدة فقط بل الأندلس أيضاً إلا أن أوروبا كانت قد بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمه بينما بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة كانت مركز الحضارة والنشاط العقلي لقد استعان ملوك الغرب بعلوم العرب في نهضة ممالكهم وإقامة الحضارات بها وبناء دولهم على أسس وطيدة من المعرفة ، وقصة مجيء الأوربيين للأندلس وتلقيهم العلوم في جامعاتها ، أمر معترف به بل لقد أصبح بلاط الفونس السادس مفتاح باب الثقافة العربية لأوروبا ثم ظهرت أول مدرسة للترجمة في القرن الحادى عشر ، ومن هذه المدرسة وغيرها تخرج كبار الفلاسفة الغربيين وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات والقيود ، وترك المسلمون آثارهم في فرنسا بمثابة في مدرسة الطب في مونتالبية ، ومن هذه المدينة نشرت ترجمة القرآن الكريم باللغة اللاتينية في المجلة الآسيوية وانقشرت فلسفة ابن رشد وابن سينا ، والرازى إلى جامعات لومباردى ، وإلى سويسرا ولوفان وبدأت أوروبا تقسوم بالدور الذى قام به المسلمون في عهد الخليفة المأمون حيث بدأت فعلاً نهضة وحركة ترجمة في طليطلة في أكبر مراكز النقل والترجمة منذ أوائل القرن الحادى عشر وقنافست أشبيلية ومرسليا في ترجمة العلوم والطب وتأثر الغربيون بآثار هؤلاء الكتّاب فنهضوا من قشيع لابن رشد أو الغزالى .

وأما لولا المسلمين لاضاع أكثر العلوم القديمة ولتأخرت نهضة أوروبا الحديثة .
قرونا وفي ذلك يقول العالم الفرنسى د لوبون ، ما من مؤلف أوربى في القرن الخامس عشر إلا وعلمه منقول عن علوم المسلمين ، وقال أنهم كلهم أما متعلمون

للغرب أو نقله لكتبهم وأن الكتب المترجمة من العربية لاسيما الكتب العلمية منها كانت إلى مدى بعيد الأساس الذي قام عليه التعليم في جامعات أوروبا نحو خمسة قرون .

وفي بعض العلوم ظل تأثير المسلمين في الغرب بادياً إلى عصر قريب ، ففي أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش في جامعات فرنسا ، وكان ابن الراشد منذ القرن الثالث عشر المرجع الأعلى للفلسفة في الجامعات الفرنسية . وكان له تأثيرة أيضاً في جامعات إيطاليا وهكذا كان فضل العرب عظيماً على الحضارة لأنهم كانوا في القرون الوسطى قوامين على علوم القدماء ، ولم يكتفوا بمدرسة تلك العلوم والإحتفاظ بها وبشها في أنحاء العالم ، بل أضافوا إليها إضافات كبيرة وتناووها بأسلوب علمي بعيداً عن الحرافات والأوهام كذلك فإن اللغة العربية كان لها فضلها على العرب والعالم الاسلامي والحضارة كلها فنذ أن أنتشر الإسلام في بقاع العالم القديم ، واللغة العربية نواكب انتشاره وتتابع خطاه وانتشر بين علماء المسلمين لتصبح اللغة المشتركة لجميع مسلمي الأرض فقد كان العلماء المسلمون يفضلون كتابة مؤلفاتهم ولاسيما الدينية منها باللغة العربية ، وهكذا ظهرت المؤلفات العديدة باللغة العربية في أنحاء الأرض وفي كل الجهات التي انتشر فيها الاسلام ، ولقد ألقت كثيراً من الكتب باللغة العربية في الهند والملايو والبلقان وغيرها من بلاد أوروبا وآسيا وأفريقيا .

وما هو اليوم نرى لغتنا العربية تصبح لغة عالمية يسهل للأجنبي دراستها والتحدث بها وقراءة مؤلفات رجالها وسوف تكون اللغة الأساسية لشعوب أفريقيا التي تشدد لغة واحدة تربط بين جميع أبنائها على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، لقد فتحت اللغة العربية صدرها للتدوين تراث الانسانية لمدى يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان واتسعت لمقومات أمة شرفت الحضارة الانسانية وحفظت المعارف الانسانية فكانت أصلح بيئة طورتها وتفاعلت معها ، وأن العالم اليوم يتجه إلى تفهم للشعوب العربية ويحتاج رجال الأعمال الاجانب إلى تعلم اللغة العربية لذا اتجهوا إلى تعلمها لأن اللغة العربية هي اللغة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون

وعاء لوجه الذى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، إنما جعلناه قرآناً عربياً ، وأن أية محاولة تستهدف زعزعة كيان اللغة العربية إنما تستهدف فى النهاية زعزعة كتاب الله والكيك للإسلام ، وسوف نحاول هنا أن تلقى الضوء على أثر المسلمين فى كل فن من فنون المعرفة .

أولاً : أثر الإسلام فى الآداب الأوروبية :

لقد أعطى العرب أديهم وشعرهم لأوروبا أعطوها شعر عربياً خالصاً لهم ساهم فى تطوره فى مراحل الأخرى بعد أن استظلوا بالحضارة العربية وتأثروا بها ، ذلك لأنه كان لابد من انصهار سكان جنوب غرب فرنسا والأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا فى بوتقة الحضارة الإسلامية العربية حتى يستطيعوا أن يستقوا النماذج العربية من الفن الأدبى العربى وقد كان لهذا التأثير أثره القوى فقد نشأت أجيال مختلطة وأجيال متعايشة تعيش كلها فى جو إنسانى من التواجد الكريم الذى يلهم المواهب ويدفع إلى الابتكار والخلق سواء فى القصص العربية أو فى الشعر بأنواعه المختلفة كالشعر والحساس أو غزل الغزل والهجاء والوصف ، ولقد كانت مساجد الأندلس وجامعات فرنسا وصقلية بفضل المسلمين وعلمهم يحمل مشاعل الابتكار فى الفكر والفلسفة ذلك لأن العرب لم يؤلفوا جماعات مهاجرة مثلاً كان الفتح الأوروبى لأمريكا وإنما كان العرب قوم نشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم أينما ساور والعرب شعب متفتح أقبلوا يعطون ويأخذون ولم يفرضوا دينهم على أحد ، ولكن المسلمين يمتازون بكل ما يذبح الشعوب من قدره على التكيف بالبيئة والطموح إلى الاستفادة من كل مصدر حضارى .

ومع إنتشار الإسلام بدأ إنتشار عمائل اللغة العربية التى أصبحت لغة تلك الأجناس المختلفة المنصهرة فى بوتقة الإسلام ، بعد أن تعربت هذه الشعوب فى مدى قصير وعلى نحو بالغ السرعة ، ولقد أثر الأدب العربى والشعر العربى فى أوروبا فقد اتصلت حياة شعراء أوروبا الفنانين اتصالاً وثيقاً بالحضارة العربية الإسلامية وترك الأدب أثره الواضح والقوى على كل الآداب الأوروبية التى تأثرت

به وأخذت عنه الشيء الكثير وعملت على ترجمته ، وفي فن القصة أثرت تأثيراً قوياً في القصص الأوربي التي ظهرت فيما بعد .

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا تأثير العناصر العربية في الأدب الغربي الذي كان يعتبر تأثيراً مباشراً للأدب العربي ، وهذا يفسر إقبال الآداب الأوربية على الأدب العربي نقلاً وترجمة واقتباساً فقد ترجمت كثيراً من الروايات العربية إلى اللغة الإيطالية والفرنسية والألمانية والانجليزية ولقد تركت هذه الروايات العربية أثرها القوي في نفسية الشعوب الأوربية المختلفة الأمزجة والطباع واللغات .

ولقد أجمع الباحثون على أن الحضارة العربية كانت أعظم حضارة شهدها العالم طوال العصور الوسطى وأن فضل العرب عظيم في الميدان الحضاري ومنها الميدان الأدبي لا على أوروبا وحدها بل كل البشرية جماء .

ثانياً : أثر المسلمون في الفلسفة الأوربية :

لقد أثر الفلاسفة المسلمين تأثيراً قوياً على رجال الفلسفة الأوربية وكانت المدارس الإسلامية وتفكير الإسلامى مصدر هام من مصادر تكوين العقل الأوربي وكان لفلاسفة الإسلام فضل السبق في محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ولم يكن فلاسفة الإسلام إلا رجال الدين وعلماء الإسلام وكان بينهم علماء بارزين مثل الكندي فهو عالم قبل أن يكون فيلسوفاً عني بالدراسات الرياضية والطبيعية واجتهد في تطبيق الرياضيات في الفلك والطبيعة والطب وأصبح في عصر النهضة الأوربية واحد من أئمة عشر قطباً من أقطاب الفكر في العالم ويمكن أن تذكر بين الفلاسفة محمد بن زكريا الرازي وهو دون نزاع أكبر طبيب في الإسلام بل وفي القرون الوسطى على الإطلاق ويمتاز بالأصالة دون الملاحظة واستطاع أن يكشف عن أمراض لم تكن معروفة من قبل وكتابة الحواشي في مقدمة كتب الطب العربية التي عول عليها الأوربيون وقد منحه الكيمياء حقاً كبيراً من عنايته ودرسها دراسة واقعية تجريبية واتجه أيضاً نحو الفلسفة ومن هنا يمكن القول بأن الحركة العلمية في الإسلام سبقت الدراسات الفلسفية وقد ظهر في العالم العربي والإسلامي كثير من الفلاسفة الذين مزجوا العلم بالفلسفة .

ولا نزاع في أن الثقافة العربية الإسلامية هي التي دفعت الأوربيين إلى ترجمتها بعد أن وقفت حركة الترجمة على بعض الذخائر العربية فرغبوا في الاستزادة منها وفي القرن الثاني عشر الميلادي بدأت حركة الترجمة الحقيقية ونظمت وزادت وسائلها ونشأت معاهد لتعليم العربية وأصبحت طليطلة وبالرمو أكبر مراكز للترجمة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وجمع فيها كثيراً من المصادر والمحفوظات الغربية ونظمت جماعات للترجمة وكان على رأس كل جماعة مراجعون محققون وقد جذبت طليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة واستطاع المترجمون أن يجمعوا ثروة هائلة من المؤلفات العربية فقد حصلوا على كتب ابن رشد جميعها واستطاعت بالرمو، أن تترجم أحسن مؤلفات العرب وعلى رأسهم ابن رشد ومن بالرمو وزعت الترجمات العربية على الجامعات الأوروبية رغبة في نشر العلم وما أن وصلت التراجم العربية إلى مختلف بلاد أوروبا حتى تلقفتها الأيدي في مختلف العواصم العربية ونسخت منها عشرات المخطوطات وكانت تجارة الكتب رائجة رواجاً عظيماً في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

وكان كتاب الشفاء لابن سينا له أثر كبير وعميقاً في الحركة الفكرية الأوروبية، وكان ابن رشد أيضاً أكثر فلاسفة الإسلام حظاً في الترجمة إلى اللغات الأوروبية ومن هنا فإنه يمكن القول أن الأوربيين ترجموا قدرأ كبيراً من الكتب العربية وقرأوا هذه الكتب بعناية ودرسوها دراسة عميقة وأخذوا عنها ما أخذوا ورفضوا ما رفضوا وكان لها تلاميذ وأتباع وامتد أثر هذه الكتب إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث .

ومن الناحية الموضوعية أثار العرب في العالم الأوربي مشاكل كثيرة رددت في المعاهد والجامعات ولم يستطع العقل الأوربي أن يفهم ما ترجموا عن المسلمين واللغة العربية واستطاعوا أن يستقيروا بأراء المعاصرين من المسلمين ومن ذلك ما أرسل به فردريك الثاني حاكم صقلية إلى ملوك مصر والشام والعراق والأندلس بأسئلة كثيرة أملا في أن يجيب عنها حكماء المسلمين وقد استطاع هؤلاء الحكماء المسلمين الإجابة عن كل هذه الأسئلة .

ثالثاً : اثر المسلمون فى العلوم والطبىعة :

ليس هناك شك فى أن ظهور الدين الإسلامى كان دفعه قوية للفكر العلمى لى يتضح ويفتشر ويزيد فى معارف الإنسان ورفاهيته ونقول أليس معجزة الإسلام الخالدة هو القرآن الكريم وأليست أول آية من آياته لإقرأ ، والتي تدعوا كثير من آياته إلى التفكير فى ماسكوت السموات والأرض والسكون والكائنات كيف خلقت ، ألا تفرق الآيات بين الذين يهملون والذين لا يعملون ، وبين الذين أوتوا العلم وبين الذين لم يعرفوه ، ألم يفضل رسول الله مجلس العلم على مجلس الذكر ، ألم يقسم الناس إلى فئات ثلاث ، عالم ومتعلم والباقي همج ، ولم يدعوا إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد وإلى طلب العلم ولو فى الصين ، ألم يوازن بين مداد العلماء ودماء الشهداء ، ألم يقل صلى الله عليه وسلم غزوة فى سبيل العلم خير من مائة غزوة إلى آخر ما لا يكاد يقع تحت حصر من آيات وأحاديث كلها حض شديد على طلب العلم .

ولذلك ما أن استقرت الدولة الإسلامية وامتد سلطانها من مشارق الصين شرقاً إلى مشارق فرنسا غرباً حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروعها وفنونها فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية وينقلون إلى اللغة العربية علوم الأغريق والرومان والفرس والهنود ، وترجموا عن الأغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندية ، ونقلت ألوف الكتب من المكتبات وأقيمت دور الكتب والمكتبات وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام فى رعاية العلم والعلماء وتسابقوا فى الإنفاق بسخاء على العلم والعلماء وقبل الخليفة هارون الرشيد الجزية كتب كما دفع المأمون وزن ما ترجم فحبها وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ومنازل العلماء ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض .

وجاء وقت كان فيه كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ومعلماً يقوم على تعليمه ورائباً يقدم له وكان جامع المنصور فى بغداد ، والجامع الأموى فى دمشق والجامع الأزهر فى القاهرة وجامع القيروان فى تونس وجامع القرويين فى المغرب

الأقصى (فاس) وجامع قرطبة في الأندلس والجامع الكبير في صنعاء إلى جانب بيت الحكمة في بغداد ، ودار العلم في الموصل ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، ومكتبة ابن الشاطر في الشام ودار الحكمة بالقاهرة ، كانت جميعاً بمثابة معاهد للعلم في أرق صورة وكانت في رعاية الحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين زنكي ، والحاكم بأمر الله ، وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفي هذه البيئة العلمية الصالحة وفي هذا الجو العلمي الخافق نشأ عدد من العلماء يصلون إلى مرتبة أعظم العلماء في عصرنا الحالي وكانت اللغة العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقراها الناس في أى مكان من الوطن الاسلامى الكبير وازدهرت حركة الترجمة إيماءً أزدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة في مختلف فروع المعرفة العلمية ، نقلوا علوماً وابتكروا أخرى وأضافوا كثيراً من الآراء والنظريات، تكلموا عن الجاذبية الأرضية والربط بين السرعة والثقل والمسافة ولقد كان الخازن وغيره من العلماء المسلمين ممن كتبوا في ذلك ، وتحدثوا عن أثر البيئة على الأحياء قبل « مارك » وشرح « ابن النفيس » الدورة الدموية الصغرى قبل « هارفى » ببضعة قرون وكذلك الحال في طبيعة الضوء وسرعته ونكساره وكذلك كتب ابن الهيثم قبل علماء أوروبا ، كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوه وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات وأضافوا إلى المعارف الفلسفية الشيء الكثير وأضافوا البتاني والفرغاني والسكندی والخوارزمي والصوفي وغيرهم من علماء المسلمين ، وابتدع الخوارزمي في استعمال الأرقام في الحساب بدلا من حساب الجمل الذى كان سائداً وكذلك أنشأ الخوارزمي معلومات في الحساب والجبر وعلما للناس .

كذلك ألف العلماء العرب في النبات والمعادن والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب والموسيقى وغيرها ولا يمكن أن يحجب فضل ابن الهيثم والبيروني والسكندی والغافقي والبغدادى والقزويني وابن مسكويه والجاحظ والخازن وجابر بن حيان وابن النفيس وابن البيطار

وداود الإنطاكي والقدسي والبناتي والفرغاني والإدريسي وابن ماجد والدينوي والدميري والصوفي وابن حمزة وابن يونس والرازي والخوارزمي وموسى بن شاكر وغيرهم من علماء المسلمين الذين ساهموا في دفع عجلة التقدم الحضاري بما ابتكروا من معارف ونظريات لم تكن معروفة من قبلهم وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع الأساسية المعتمدة في جامعات أوروبا في القرن السابع عشر واعترف عدد كبير من مؤرخي العلم بفضلهم على العلم والإنسانية حتى قال قائلهم أنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدينة عدة قرون وقال آخر أن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا إليها وظلت الأمة الإسلامية والعربية حاملة لواء النهضة العلمية عدة قرون في وقت كانت أوروبا مانزال غارقة في ظلام الجهل .

وأهدى الفكر الإسلامي والعلماء المسلمين في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية كثيراً من الابتكارات العلمية وذلك لأن هؤلاء العلماء العرب كان دأبهم الأول هو تحصيل العلوم من طبيعية وفلكية ورياضية مضرب الأمثال وأنه لشهد بذلك أعمالهم ولقد كان كل عالم من هؤلاء العلماء الأعلى كعباً والأرسخ قدماً في علمه وفنه وإن كتب العالم منهم لتبلغ بالعشرات إن لم تبلغ بالمئات وأن الذي أعانهم على ذلك ما وهبوه من عقول راجح جبار وعبقورية فذة ناضجة إلى جانب الصبر والمصابرة مع علو الهمة وعشق المعرفة وكان اقتناعهم بأن الأسلوب العقلي والمنطقي وحده لا يكفي للنهوض بالعلوم الطبيعية بل لابد من إجراء التجارب وتسجيل المشاهدات والملاحظات وتجميع البيانات والقرائن فانبعوا الطريقة العلمية الصحيحة .

فقد كان جابر بن حيان يوصي تلاميذه بالاهتمام بالتجربة وعدم التعويل إلا عليها مع التدقيق في الملاحظة وعدم التدرع في الاستنتاج وبل أن تفوق العرب في العلوم إنما هو ناشئ من الأسلوب الذي اتبعوه في بحوثهم فالعلماء العرب هم واضعوا أسس البحث العلمي بالمعنى الحديث ، فقد تميزوا بدقة الملاحظة والرغبة

فى التجربة والاختبار ، وابتدعوا طرقا واخزعوأ أجهزة والآت وقد دلت التجارب على سبق العرب فى كثير من الميادين والمجالات العلمية وأن كثير من علماء أوربا ساروا على نهجهم حتى حققوا النهضة الأوربية الحالية .

وقد وضع العرب مؤلفات عديدة فى الحساب ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، وكذلك عرفوا النسب العددية والهندسة وعرفوا نظريات الإثبات واستخراج الجذور واتخذ بعض العلماء العرب من المربعات السحرية رياضة فلسفية ومتاعاً عقلياً كذلك فإن العرب أول من استعمل كلمة جبر للدلالة على العلم المعروف وماتزال كلمة Algebra مستعملة فى اللغات الأجنبية حتى الآن ويعتبر الخوارزمى أول من ألف فيه بطريقة منتظمة وكان كتاب الجبر والمقابلة المصدر الذى اعتمدت عليه أوربا وكان أثره فى تقدم علم الجبر لدى الغربيين لا ينكر كما كان كتابه فى الحساب مصدراً انتفع منه الأوربيون كثيراً .

ونريد أن نكون منصفين فلانقول أن العرب هم الذين ابتكروا علم الحساب والجبر ، ونقول أنه صحيح أن حل معادلات الدرجة الثانية كان معروفاً عند الإغريق والهنود ولاشك أن الخوارزمى قد أطلع على مالى الهنود والإغريق من علم رياضى ولسكننا لم نعلم على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى ويقول أحد علماء الغرب : كاجورى ، أن العقل ليدش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر ونجح العرب فى الهندسة فقد توافر عدد من علماء العرب على دراسة كتاب الأصول ولاقليدس ، كما ألقوا كتاب على مستواه وأدخل بعضهم تمارين لم يعرفها القدماء فمنهم من ابتكر حلولاً لبعض المسائل الهندسية ومنهم من أبرز الصلة وأكد التسامح بين النظريات والتمارين الهندسية واستعمل ابن الهيثم الهندسة بنوعها المستوية والمجسمة فى بحوث الضوء وتعين نقطة الانعكاس فى المرايا السكربة والاسطوانية المخروطية المحدبة منها والمقعرة وقد كان ابن الهيثم عالماً فى الرياضة بكل ما تحمل من معق وأبلغ ما اتصل إليه من حدود وقد قسم العرب الهندسة إلى نوعين عقلية وحسية وإذا كان العرب قد اعتبروا سباقين فى علم الهندسة فإنهم من أوائل واضعى علم حساب المثلثات فهو علم عربى بحثوا المسلمون أول من ألف فيه

جطريقة علمية منتظمة وقد عرب العرب علم الفلك ولهم فيه رصدات وقياسات كثيرة وربطوا بينه وبين العلوم الرياضية ومنهم من ربط بين حركة الأجرام السماوية وحوادث العالم وقد كان علم الفلك ضروريا لبعض الأمور الدنيوية كأوقات الصلاة وتحديد القبلة حسب موضع البلد الحرام (مكة المكرمة) ومعرفة الموقع الجغرافي وحركة الشمس في البروج وأحوال الشفق وھلال رمضان ، وقد اشتهر علماء مسلمون كثيرون في الارصاد ونبغ علماء كثيرون في الفلك ، وألفوا فيه وعملوا أرصاداً وقد ذاع صيت الفلكيين العرب مثل البعلبكي والسكندي والبيروني والخازن والطوشي وغيرهم من عاھاء المسلمين البارزين .

وقد نبغ العرب في الطبيعة والميكانيكا وعالج سينا موضوع سرعة الصوت وسرعة الضوء في كتاب الشفاء ، وأما ابن الھيثم فيعتبر مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور وهو من أئمة علماء الضوء وقد عرفته أوربا باسم الھازن ، وهو تعريف لسكلمة الحسن ، ألف في طبيعة الضوء نحو أربعة وعشرين كتابا واشتهر البيروني في الطبيعة ولاسيما الميكانيكا وله شروح في حفظ السوائل وتوازنھا ، وألف بنو موسى كتابهم الذي يعتبر الأول في نوعه في الميكانيكا وإيجاد مراكز الثقل ووصف الرازي الأجهزة العلمية التي كانت معروفة في عصره وكان كتاب ميزان الحسنة للخازن له شأن عظيم في تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر العلمي عند العرب وهكذا نرى أن كتب الخازن وابن الھيثم والبيروني وغيرهم من العلماء العرب كانت المراجع المعتمدة لدى أهل الصناعة في أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر وكانت المعين الذي استقى منه هؤلاء ونهلوا منه كل ما يحتاجون إليه وأضافوا إليه فيما بعد .

وفي الكيمياء يعتبر جابر بن حیان شيخ الكيمائيين العرب ويعتبر مؤسس علم الكيمياء بالمعنى الحديث فقد بين أهمية التجارب وكذلك أوصى بالدقة في الملاحظة والاحتياط وحول المعادن الخبيثة إلى معادن نفيسة وخاصة الذهب وأدخل جابر على الصناعة شيئا جديداً اسمه علم الميزان وعرف جابر كثيراً من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والإذابة والتبلور ووصف كثيراً من المواد الكيميائية وعرف خواصھا مثل نترات الفضة وحامض الأزتيك .

والمعروف أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء قد ترجمت وغيرها من كتب الكيمياء العربية إلى اللغة اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة في الكيمياء وخاصة عدة قرون وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء العرب وقد وضعه علماء الغرب في القمة بين العلماء العرب وأن علماء الغرب لم يستطيعوا تصور أن تكون هذه الأعمال العلمية القيمة في الكيمياء تنسب إلى رجل عاش في القرن الثاني للهجرة .

وأما أبو بكر الرازي فقد اشتهر بالطب والكيمياء ويعتبره البعض من مؤسسي علم الكيمياء الحديثة وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى فقد وصف أكثر من عشرين جهازاً وقد حضر الرزي الأحماض مثل حامض الكبريتيك وسماء زيت الزاج ، وليس هناك شك في أن عدداً من علماء العرب قد أولع بالكيمياء وكتب وألف فيها حتى ولم يشتهروا بها أمثال ابن داود الانطاكي وابن البيطار والبغدادى وابن ميمون وابن النفيس والزهاوى وغيرهم من علماء الإسلام

علم النبات :

وعلم النبات كان له عشاق ومريدون من علماء العرب وكان لهذا العلم ارتباط كبير باعتباره تابعا لعلوم الطب والصيدلة إذ كانت أغلب العقاقير المستعملة في العلاج إن هي إلا نباتات ذو خلاصات نباتية وقد حض ابن سينا في كتابه الثاني من القانون دراسة النباتات وقد اعتمد ابن سينا في وصفه للنبات على الطبيعة وقد وصف ابن سينا على هذا النحو أربعمائة نبات وفي كتاب الشفاء أيضاً وصف الشيخ بعض أجزائه لدراسة النبات وأورد كثيراً من النظريات ومن الذين اشتهروا بالنبات (ابن البيطار ، العشاب ، الاندلسى الذى جاب شمال أفريقيا ومراكش والجزائر وتونس وكان رئيساً للعشابين في مصر كإدريس نباتات سوريا واشتهر بالطبيب الحاذق والعشاب البارع وقد اشتهر بمؤلفين من ثمرة دراساته أولها الجامع في مفردات الادوية والاغذية ، والثاني كتاب المغنى في الادوية وقد ذكر ماهيات هذه الادوية وقوامها ومنافعها ومضارها وقد ذكر فيه أسماء النباتات بعدة لغات وقد وصف عدة مئات من النباتات رتبها

ترتيباً أبجدياً وقد غلب على كتابه المادة العلمية وكذلك اشتهر داود الانطاكي بكتابه الضخم وتذكرة أولى الالباب والجامع العجائب، ويعنى بذكر مواطن النبات وزمان قطفه وقد أتى غلى وصف مئات من أنواع النبات .

ومن اشتهر بعلم النبات أيضاً عبد اللطيف البغدادي الذي عاش زمن صلاح الدين الايوبي واشتغل بالتدريس في الأزهر بالقاهرة كما درس في الجامع الأموي بدمشق وقد وصف البغدادي نباتات مصر وصفاً دقيقاً ، كذلك شغف القزويني بعلم النبات وأتى في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، على وصف كثيراً من النباتات من محاصيل وخضروات وفاكهة وأورد ابن سيده في كتابه المختص، وصفاً كثير الأنواع السكلا والشجر والعشب والحفظل وغيرها ، وكذلك عني الإدريسي بدراسة النبات وكذلك فعل غيره الكثيرون مثل الدينوري والغافقي والقرطبي وابن الصوري في وصف مئات من الأنواع النباتية .

والذي لا شك فيه أن أغلب علماء النبات من العرب إنما تغلب عليهم الناحية العلمية وإن اهتم بعضهم بوصف بعض النباتات غير العلمية كما اهتم آخرون بطرق الزراعة .

الحيوان :

وكذلك اشتهر بدراسة الحيوان عدد غير قليل من العلماء العرب وكتبوا كثيراً عن علم الحيوان وقد عرض ابن سينا في كتاب الشفا جزء مفصلاً لدراسة الحيوان فأورد نماذج رائعة لأنواع مختلفة من الحيوان والطيور وأسهب في التشريح المقارن بين الحيوانات المختلفة والطيور والاسماك وأن جولانه في وصف أنواع الحيوان من طير وسمك وزواحف وثدييات وبرمسيات لما يذكر له بالتقدير ولا شك في أن ابن سينا مارس التشريح سواء ذلك في جسم الانسان أو مختلف أنواع الحيوان وإلا لما استطاع أن يصف بدقة هذه الأجهزة المختلفة لتلك الكائنات وفي ذلك أنه يذكر تفاصيل لا تكاد نعرفها في الوقت الحاضر إلا باستعمال العدسات والمجاهر وكذلك عني بعض العشابين مثل ابن البيطار، وداود الانطاكي بوصف كثير من أنواع الحيوان مما نستخلص منه عقاير علاجية كما وصف

عبد اللطيف البغدادى كثيراً من حيوانات مصر وكذلك فعل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وذكر ابن سيدة فى بعض أبواب الجزء السادس من كتابه المخصص وصفاً للخيول وما يختص بها وصفاتها وأحوالها كما تحدث عن الإبل والغنم والماعز والسباع والكلاب والطيور والنحل وغيرها من مختلف أنواع الحيوان فقد ألف شعراً ضخماً فى كتابه الحيوان ذو السبعة أجزاء وقسم الحيوان إلى ثلاثة وقد سجل الجاحظ ملاحظات عجيبة فى سلوك الحيوان ، سجلها بدقة تنتزع التقدير والإعجاب كما أنه أجرى بعض التجارب على بعض أنواع الحيوان كذلك عالج الدميرى موضوع الحيوان بالطريقة التى جرى عليها علماء العرب من حيث ترتيب أسمائها حسب حروف الهجاء ونلاحظ أن الدميرى كان له أثر بارز عن سبقوه من العلماء العرب أمثال الجاحظ وابن سيده وكان كتابه موسوعة ميسرة لما فيها من نفع على .

الصيدلة :

وكانت الصيدلة العربية التى برع فيها العلماء العرب تابعة لعلم الطب وأن جميع الأطباء العرب قد كتبوا فى الصيدلة كما كتبوا فى النبات بوصفهما فنيين لازمين للطب وقد خصص ابن سينا جزء خاص من كتاب القانون للمادة الطبية والصيدلة كما كان له يورد وصفاً تفصيلياً للنباتات التى تستخدمها كأدوية ولقليل من الحيوانات والمعادن التى فستخلص منها عقاقير نافعة وقد وصف ابن سينا عدد النباتات التى تباع عند العطارين من أخشاب أو قشور أو ثمار أو أزهار مما يتفق وعلم النبات الصيدلى ثم وصف طريقة استخلاص العقاقير كذلك فعل ابن الهيثم فى كتابه الطب الذى قيل أنه يقع فى ثلاثين جزء كما فعل ثابت بن قرة الذى خصص كتابه فى أجناس ما تقسم إليه الأدوية كما فعل الرازى الذى حضر الكحول بقططير المواد النشوية وكان يستخدمه فى الأدوية والصيدليات ، كما أن له كتاب فى الصيدلة كذلك .

وأما ابن البيطار فقد جمع فى كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات والحيوانات والمعادن وكذلك فعل داود

الانطاكى فى كتابه تذكرة الالباب والجامع للعجب العجاب وكذلك شغف العرب
هنا بجر الحضارة الإسلامية بالمعادن والتعدين .

فقد شغل كثيرأ من العلماء العرب بتحويل المواد الخبيسة إلى مواد نقية وخاصة
الذهب والليرونى، كتاب عنوانه «الجاهر فى مصرفه الجواهر» ورسالة فى المعادن،
ويشهد الجيولوجيون المحدثون بأن البيرونى فى كتابيه هذين يعتبر جيولوجيا ممتازأ
على أن كثيرأ من العلماء العرب قد عالجوا موضوع المعادن لاستعمال بعضها فى
الادوية والعقاقير .

وفى الجملة فقد تناولت كتابات العرب فروعاً مختلفة فى الجيولوجيا مثل علم
المعادن وعلم الحجار الكريمة وعلم الصخور، كما تناولوا الجيولوجيا الطبيعية
وعلم البحار وعلم الحفريات والمساحة الأرضية واهتموا بصناعة التعدين
واستغلال الخامات .

والخلاصة أن العلماء العرب فى العصر الإسلامى قاموا بدورهم الطليعى خير
قيام فى بناء النهضة العالمية فعلى امتداد الامبراطورية العربية الإسلامية من مشارق
الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وجنوب إيطاليا غرباً كان على كل من أراد أن
يكتب علماء تقراه الناس لجأ إلى اللغة العربية فكتب وألف بها وظلت كتبهم
فى العلوم الطبيعية والمراجع الأساسية والمعتمدة فى جامعات أوروبا حتى أواخر
القرن السابع عشر الميلادى ترجمت إلى اللغات الأوربية المختلفة بعد أن ترجمت
أولاً إلى اللغة اللاتينية لغة أوروبا الأم التى تفرغت منها اللغات الأوربية .

وما أن عرفت الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر حتى طبعت هذه
الكتب عدة مرات وشهد لهم كثيرون من مؤرخى العلم مثل شارتون وسميث
وكاجوى وغيرهم من علماء أوروبا بأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء
النهضة الأوربية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ويدلنا تتبع تطور الفكر العلمى
على مر العصور كيف أثر العلماء العرب والمسلمين فى النهضة الأوربية وكيف
تأثر علماء أوروبا بأعمال العلماء العرب ولعلمهم هم أصحاب الفضل الأول فى وضع
الطريقة العلمية والمنهج التجريبي حتى قيل بحق إنه لولا ما أصاب الأمة العربية

الإسلامية من محن على أيدي الغول والتتار والترك والصليبيين والاستعمار الحديث
لكانت هذه النهضة العربية الإسلامية هي أستاذة النهضة الحديثة اليوم وكانت ما تفاخر
به أوروبا من نصيب الأمة العربية الإسلامية ولكانت لغتها العربية هي اللغة
الأولى في العالم اليوم دون سائر اللغات الأخرى فقد كانت هي لغة العالم الأولى
في العصر الإسلامي .

رابعاً : اثر الطب العربي في أوروبا :

لم يكن في العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر
علم طبي يعتمد به إلا ما كان عند العرب والمسلمين وما كان عند غيرهم لم يكن إلا
منقولاً منهم ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب
علماً وعملاً وتنظيماً وهذه حقيقة تاريخية ثابتة لا نزاع فيها فلقد بذل الرواد من
مؤرخي العلوم جهداً بالغاً في دراسة تاريخ الطب العربي ، ووصفوا كيف نشأ
في بغداد وكيف نما وأزدهر حتى بلغ أوجاً عظيماً في عهد الرازي وابن سينا وكيف
انتقل بعد ذلك إلى عواصم الأمم الأوروبية وكانت السكتب تترجم من العربية
إلى اللاتينية وهذه الترجمة وقع فيها كثيراً من الأخطاء لأنها كانت تتم من العربية
إلى العبرية ومن العبرية إلى اللاتينية وهذه التراجم المزدوجة كانت مصدر أخطاء
عديدة وكان من المترجمين من ينسب إلى نفسه مؤلفات عربية يلتبس بذلك
لنفسه الشهرة وكان أكثر المترجمين لا علم لهم بعلم الطب وأوقعهم الجهل في
أخطاء كثيرة وقد قال بعض العربيين عن الطب العربي أنه ليس فيه جديد، ومن
السهل أن ندحض هذه الدعوى بذكري عدد من الكشوف العربية والمعروفة
وقد يدلنا البحث في بطون المخطوطات على كشوف أخرى ، فقد عرف العربي
طب أبقرات وجالينوس ، فازدهر فيهم وطبق الأطباء العرب العلم النظري
تطبيقاتاً جميلة .

ويقال عن طبيب عربي هو الحارث بن كندة في أواخر القرن السادس
عشر وكان قد تعلم الطب على السرياني ولكن ما نقل إلينا عنه لا يدل على
علم كبير وتقوم شهرة مدينة جندشابور ، عند مؤرخي العرب على أحرار

آل بمختلوع من شهرة ومجد وحظوة عند الخلفاء العباسيين ولا شك في أنهم كانوا يمثلون صنفاً من الأطباء كان معروفاً عند القدماء وهم أطباء البلاط وكانت الصفات الغالبة عليهم هي الماهرة وحسن التصرف وأن فضلهم على النهضة العلمية العربية يكاد يكون مقصوراً على أنهم يذهبوا أذهان العرب إلى علم لم يكونوا ليعرفوا عنه إلا الشيء القليل ولكن سرعان ما ترك العرب طب السريان واستقلوا عنهم وتفوقوا عليهم تفوقاً ظاهراً في التأليف والممارسة ولقد كان العرب على استعداد لقبول العلوم بكل فروعها بما يتلائم مع الدين الإسلامى الخفيف .

وأن العرب كانوا على قدر من التقدم الفسكرى بحيث يسمح لهم باستيعاب كل هذه العلوم بل أن التفكير العربى كان قد بلغ في تطوره حداً بعيداً وقد كانت للعرب علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها شوطاً كبير ووضعوها لها أصولاً مستقرة ومناهج واضحة وكان هذا من عملهم وحدهم فالعرب لهم علومهم الخاصة بهم ومنهجهم فييات تفوقهم في أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التى لم يكن لهم بها عهد والتى تقوم في جوهرها على تفكير قريب جداً من تفكيرهم ومن هنا كان النجاح الذى أحرزته الفلسفة والطب والعلوم لدى العرب لم يأخذوا من اليونان إلا ما وافق طريقة تفكيرهم وبما زاد في إقبال العرب على الطب وضوح مبادئه ونجاح وسائل العلاج القائمة على هذه المبادئ ولم يجدوا صعوبة في التوفيق بين خبرتهم العلمية والأسس الفكرية التى نقلوها عن اليونان .

وتاريخ الطب العربى تاريخ طبيعى يشبه في جوهره تاريخ النبضات العلمية عامة وكان تطوره على خطوات واضحة المعالم قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة وكل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه والمطلع على طب الرازى وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف بأن الطب العربى كان له حياته القوية المستقلة ولقد مر الطب العربى بعدة مراحل حتى بلغ عصره الذهبى وكان الرازى أكبر رجال هذه الطبقة وإليه انتهى الطب الاكلينيكي عند العرب ولعله يكون أكبر الأطباء الذين تفننوا على نهج الخبرة المنظمة عقلياً ولاشك أن الرازى كان أستاذاً بارعاً له نظام مستقر وواضح في تعلم الطب النظرى والطب الاكلينيكي وله رأى واضح في امتحان الأطباء ووضع نظام للتنسيق أسماء الادوية باللغات اليونانية والسريانية والعربية والفارسية والهندية ومقاديرها .

وكانت الحالات المرضية التي تفرض في الممارستان تعرض أولاً على الأطباء الناشئين فإذا لم يعرفوها عرضت على من هم أكبر منهم في الخبرة الطبية فإن عجزوا عن علاجها عرضوها على الرازي وكان يبدى رأيه في الحالات الصعبة وكان يدون رأيه في التشخيص والعلاج وكانت له عدة مؤلفات منها كتب في العلم النظري واضحة ومنسقة ومبوبة وكتب في الطب الاكلينيكي وهي مجموعة مشاهدات وهي بطبيعتها ليست مقسمة إلى أبواب على أن مجد الرازي يقوم على علمه بالطب العملي وخبرته فيه وما ابتدعه من تدوين والملاحظات والتعليق عليها وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من قبل وقد جمع ذلك كله في كتابه الحاوي وكان هو وتلاميذه يصدقون ويدينون المشاهدات كما عرضت عليهم ، وليس لنا أن ننسب إلى الأطباء العرب معرفة العلم التجريبي كما نعرفه اليوم ولكن الرازي في بعض أقواله يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث ولا بد أن نشير هنا إلى كتابه الحاوي الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية ولعلمهم لم يستفيدوا منه كثيراً لأن علمهم النظري في ذلك الوقت لم يكن بالقدر الذي يسمح لهم بتفهم الطب الاكلينيكي ولم يكن عندهم من العلم بالمرضى والأمراض ما يسمح لهم بمعرفة فضل هذا الكتاب الطبي الهام .

ثم جاء علي بن العباس وهو من تلاميذ الرازي فوجد لديه علماً نظرياً عزيزاً وعلماً عملياً مستقراً فبدأ له أن يؤلف كتاباً جامعاً في الطب يكون أوضح من كتاب أبقراط وهذا تطور طبيعي في تقدم الطب وكتب علي بن العباس كتابه « كامل الصناعة » وهو كتاب جيد ولعله أول كتاب عربي كبير ترجم إلى اللغة اللاتينية حيث عرف بالكتاب الملسكي .

ثم جاء ابن سينا وهو من أذكى العالم وكتب كتاب القانون وكان لابن سينا على الأطباء فضل لا ينكر فإذا كان فيلسوفاً ممتازاً فقد كان طبيباً ممتازاً أيضاً جمع في كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب والواقع أن العرب كان فيهم الأطباء والفلاسفة وابن سينا بلغ الغاية في الفلسفة والطب واسكنه مع ذلك كان أكثر ميلاً بطبيعته إلى الفلسفة ومن هنا كان كتابه مقبولاً عند المفكرين والممارسين للطب على حين كان كتاب الرازي أكثر قبولاً عند الممارسين خاصة

وكتاب القانون من المكتب العالمية وفيه حل لكل المشاكل المتعلقة بموضوعه بحيث لا يجد معاصيره حاجة إلى الزيادة فيها أو تغييرها .

وهذه هي خصائص العلم القديم القائم على كميات محدودة ولذا ذكر أن نهضة طبية عمالة قامت في الأندلس وتطورت على غرار طب الشرق القائم في بلاد الشرق الإسلامي ولكنهم في الأندلس عنوا عناية خاصة بالجراحة وكتب فيها الزهراوى كتابا قيمة وصف فيها الآلات الجراحية التي اخترعها ووصف عمليات كثيرة وصفاً دقيقاً كالشق والسكي والفصد وتفتت الحصى ، ويبدو أن الطب العربي لم يتقدم كثيراً بعد ابن سينا وكتابه إلا أن فن العلاج في البيمارستانات ظل يتقدم وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات واعتنى بها الأمراء الأطباء وبلغت مبلغاً من الرقي والتقدم تحدث به الرحالون من أهل الغرب .

وهكذا كان حال العلوم الطبية في الامبراطورية العربية الإسلامية الممتدة من حدود الصين إلى الأندلس في فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية طوال سبعة قرون ولم يعمل العرب على نشر علومهم في البلاد المجاورة ولكن الأمم الأوربية سمعت بتقدم الطب عند العرب وعلمت عنه الشيء الكثير فاجاموا إلى البلاد العربية يتعلمون فيها الطب على يد المشاهير العرب من أساندة هذا الفن العظيم وكان طبيعياً أن تستفيد الأمم الأوربية من الحضارة المزدهرة في ذلك الوقت ولقد استفادت الأمم الأوربية من حركة الترجمة التي قام بها العلماء في بالرمو في صقلية وكان أثرها في النهضة الأوربية أكثر كثيراً من أثر الاتصال بين العرب والفرنجية ولم يكن نمو التفكير العلمي في ذلك الوقت في الأمم الأوربية متقدماً فكان أثر الطب العربي فيهم محدوداً ولم تكن حركة التبادل العلمي بين العرب والأوربيين وحركة الترجمة من العربية إلى اللغات المجاورة نتيجة لتساعح المسيحيين مع المسلمين وإنما كان الإقبال على نقل الحضارة الإسلامية إلى الأمم الأوربية نتيجة مباشرة ودليلاً قوياً على اعترافهم بتفوقها وعلى رغبتهم في الاستفادة منها والتغلب على العرب في أقوى تواجدهم وهي الثقافة العربية الإسلامية .

ولقد كانت حركة الترجمة شاملة ولا أحسب كتاباً عربياً ذا قيمة لم يترجمه المترجمون في ذلك العصر ترجوا الكتب الطبية الشيرة وغيرها مما هو أقل شهرة

وعنوا بكتب العقاقير لابن البيطار والهروى ومساويه المردني ولقد اضاف المسلمون إلى الطب اليوناني الكثير وليس كله من المصنفات والذي يطلع على طب الرازي ووصفه للمشاهدات الطبية وطريقة تدبير ما عرض له من مشاكل لا يشك في أنه كان أعظم طبعا من سابقه جميعا، ولقد عمل العرب في التشريح على أن ما عمل في التشريح ووظائف الأعضاء هو ما عمله ابن النفس في شرح الدورة الدموية الصغرى ، وبذلك فإن المسلمين فهموا الأمراض وطبيعتها بقدر ما يسمح به ذلك الوقت وأنهم كانوا أقرب إلى الصواب حيث كانوا يصفون المرض دون بحث في هذه الأمور وابتدع الأطباء العرب كذلك علم التشريح المقارن وللرازي فضل السبق في هذا المضمار ، وكان لكبار الأطباء العرب فهم جيد لتقدم المعرفة الطبية يضعون العلامات الجيدة والرديئة مرتبة على أقدارها وليس لنا أن نتعرض بالنقد لوسائل العلاج عند العرب إذ لم تكن لديهم من الوسائل إلا القليل ونستطيع للقول أن الغربيون أقادوا من الطب العربي فضلا عن هذه الكتب الجامعية لمادة علمية غزيرة جداً تتعلق بالطب الاكلينيكي وهم بذلك مدينون للكتاب الحادي وأمثاله وهذا باب من أبواب الطب لم يعرفه اليونانيون ، وقد أتقنه المسلمون والفضل في ذلك التقدم العلمي الطبي يرجع إلى الطبيب العربي أبو بكر الرازي فهو الذي ابتدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة وأخذ الغربيون عن الكتب الإسلامية الطبية عليهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة وكان كتاب ابن البيطار المرجع الأساسي الهام لهم في أواسط القرن الثامن عشر ، كذلك فإن الاوربيون أخذوا عن العرب خبرتهم في فن الجراحة والتشريح حيث كان كتاب الزهراوى مرجعا أساسيا عند كل ممارس للجراحة في أوروبا .

وأخذ الغربيون عن العرب والمسلمين نظام البيمارستانات وكان العلاج فيها حسناً إلى حد كبير حتى قيل أن بعض الاصحاء كانوا يدعون المرضى ليقيموا فيها والواقع أن الطب العربي كان ناجحا جداً ومتطوراً في القرون الوسطى وكانت الأمم الأوروبية جميعها تجهل الطب جهلاً يكاد يكون تاماً وكان تقدم الطب الاسلامي يحتم عليهم أن يأخذوا بكل ما وصل إليه العرب في هذا العلم وهكذا

أخذوا ينقلون الطب الاسلامى كله عملاً وعلماً إلى بلادهم وعرفوا منه القدر الذى يسمح به تقدمهم الفكرى فى ذلك الوقت وذلك فان العرب حملوا شعلة العلوم قائمة بعد أن كاد يطفئها الإهمال والجهل حتى تلقفها الغربيون فدبت فيها الحياة القومية التى شددتها عصور النهضة وبذلك يكون الطب العربى قوة الطب الوسيط ، اعتمد على الطب القديم وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به للمصر وانتقل بحكم هذا الرقى إلى البلاد الغربية بحملته علماً وعملاً .

خامساً : اثر المسلمون فى النهضة الجغرافية فى اوربا :

لقد كانت الجغرافيا فى مقدمة العلوم التى أولاها العرب والمسلمون الكثير من اهتمامهم فكثرت مصنفاتهم وكتبهم فيها ولا تزال هذه المصنفات وأن يعد بها العهد تمثل مرحلة بارزة فى تاريخ الفكر الجغرافى عند العرب وتطوره ، ذلك أن عناية العرب بالجغرافية كانت وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير ، إذ كانت رحلاتهم السلمية والحربية فى الصحراء الواسعة لا تتم إلا إذا عرفوا الكثير من النجوم والكواكب وما كان لهم أن يفتقلوا بإيبلهم وأغنامهم إلا إذا عرفوا موارد الماء ومنايب العشب وعرفوا أماكن وحوش الصحراء ليقوا خطرهما ومع اتساع الدولة العربية التى شملت مساحات واسعة من قارات آسيا وأفريقيا وأوربا وأصبح من الضرورى الوقوف على أحوال البلاد التى فتحها المسلمون ومعرفة الطرق التى تربط أجزاء هذه الدولة الواسعة .

وكان الحج أحد معالم الجغرافية العربية ذلك لأن الحج كان يتطلب معرفة طرق القوافل المتجه إلى مكة والمدينة وكان هو نفسه عاملاً له أهميته فى زيادة التعارف بين المسلمين وتبادل المعلومات فقد أصبحت مكة المكرمة بعد انتشار الإسلام ملتقى آلاف الحجاج يفدون إليها من كل الجهات وهم من أجناس مختلفة بجانب اتساع الدولة الإسلامية جعل العرب ورثة التراث الثقافى لهذه الدولة الواسعة وربط العرب فى دولتهم بين العلم والدين وبنوا فى الوقت نفسه حضارة عالمية وكانوا قد أصبحوا سدنة العلوم القديمة والقوامين عليها وكانت رغبة العرب فى المعرفة هى نفس رغبةهم فى نشر الإسلام وهكذا فان فضل المسلمين على الحضارة الغربية أنما يتمثل فى صيانتهم لاسس هذه الحضارة ولولا العرب لتقطعت

الصلة بين ماضى أوروبا وحاضرها ولما استطاعت أن تشهد عصر النهضة الذى قام على أساس الحضارة العربية الإسلامية .

وأثر المسلمون وجهودهم فى الجغرافية وما أضافوا إليها فى ميادينها المختلفة وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية فذلك أمر قد ألفت فيه عشرات من الكتب فى مختلف اللغات وإن كتابات العرب والمسلمين كانت أساساً من الاسس التى قامت عليها النهضة الأوروبية فى العصر الحديث وكيف كانت أبحاثهم وآرائهم نبراساً اهتدى بها علماء الغرب فتنقلوا عنهم وساروا على دربهم ، فلقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهدة الرحلات وتمحيص الروايات وما كانت الكشوف الجغرافية تتم لولا ما وقف عليه الغرب من كتاب العرب ولولا ما وصل إليهم من الأجرزة والأدوات التى سهلت عليهم الاتصال بسفنههم عبر المحيطات، ولقد أسهم المسلمون فى حركة الكشف الجغرافى إسهاماً فعالاً فهم قد عرفوا أوروبا وأفريقيا الشمالية حتى حدود المنطقة الاستوائية ، وأوغلوا بعد ذلك فى ساحلها الشرقى حتى وصلوا إلى قرب مدار الجدى ووصف العرب فى دقة وتفصيل العالم الممتد من كوريا حتى سواحل المحيط الأطلنطى واهتموا بكل الجوانب الجغرافية لهذه المنطقة الواسعة فتحدث المسعودى مثلاً عن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ومواعيد هبوبها وأثرها على الملاحة البحرية ، ولم يفت العرب أن يتحدثوا عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التى عرفوها وعن ثروتها المعدنية وإنتاجها الزراعى وعن المراعى بها وطرقها ومسالكها كما لم يفتهم أن يتحدثوا عن السكان وحياتهم الاجتماعية وأنماطها ومراكز الاستقرار البشرى وعلاقاتها بما حولها من الأرض وكانت هذه المعلومات مما أفاد منه الرحالة والرواد الأوربيون فى عصر النهضة ومن الثابت أن أوروبا لم تعرف داخل أفريقيا إلا عن طريق الكتابات العربية وظلت كتاباتهم هى المرجع الوحيد عن جغرافية هذه المناطق حتى القرن التاسع عشر ويكفى أن نشير هنا إلى واحد من الجغرافيين العرب هو الحسن بن الوزان دليو الأفريقى ، الذى عاش فترة طويلة فى أوروبا وعرف باسم ليو الأفريقى وقد وضع كتابه وصف أفريقيا .

الملاحة البحرية :

وقد استمر الرحالة الأوربيون يعتمدون على المصادر الأوربية في ارتياد ما كان مجهولاً لديهم من أرجاء الأرض ويظهر ذلك منذ رحلة «ماركوبولو» الذى استفاد من المعلومات التى استقاها من رسوم المسلمين البحرية والتى استخدم كثيراً من الاعلام الجغرافية فى صيغها الإسلامية العربية والفارسية وكانت معلومات المسلمين عن المحيط الهندى هى الأساس الذى قام عليه تجوال الأوربيين ولولا الملاح العربى «شهاب الدين أحمد بن ماجد» الذى تولى إرشاد «دى جاما» فى المحيط الهندى حتى وصل إلى ساحل الهند لما استطاع البرتغاليون الوصول إلى الهند بهذه السهولة ولقد دهش الملاح البرتغالى من سعة معلومات مرشده فى رصد النجوم وأن ابن ماجد أطلع «دى جاما» على خرائط ملاحية عربية ممتازة موضع عليها خطوط الطول والعرض وقد كان ابن ماجد من أقدم من ألف فى علوم البحار وكتب فيها ثلاثين كتاباً أهمها كتاب الفوائد الذى نشره المستشرق (جبرائيل فيران ١٩٢٠ — ١٩٢٣ م) وقد ضم الكتاب أهم ما كتب ابن ماجد وبه معظم المعلومات النظرية والعملية التى تهتم بالملاحين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وبحر الصين وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها وجزرها وموانئها والرياح التى تهب عليها إلى غير ذلك من الأمور التى تهتم بالملاحين ، ويعد كتاب الفوائد من أهم ما كتب فى أية لغة من اللغات فى العصور الوسطى عن الجغرافية الفلسفية وهو يدل على التقدم الكبير الذى بلغه العرب فى فنون البحر والملاحة فى القرن الخامس عشر الميلادى وما كان للعرب أن يقوموا بتلك الأعمال الضخمة التى حفظت لنا الكتب قليلاً منها لولا وجود الأجهزة الدقيقة التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا وحسنوا فيها ويأتى فى مقدمة الآلات الإبرة المغناطيسية أو البوصلة التى قال عنها «جوستاف لويون» أنها اختراع عربى أصيل من بين الأجهزة التى أخذوها عن الإغريق «الاصطراب» وغيرها من الأدوات .

فقد أدخل المسلمين كثيراً من التحسينات على هذه الأدوات وأضافوا إليها أجهزة أخرى من ابتكارهم مثل المزولة الشمسية ، وقد كان المسلمون أعرف

الناس بالنجوم ومطالعا ومغاربها واستخدام مجموعاتها على التعرف على الاتجاهات
في عرض البحر ولا تزال الأسماء العربية التي وضعوها هي المستعملة في كتب
الملاحية الغربية مع شيء بسيط من التحريف ، وكانت أوروبا في العصور الوسطى
لا تجمع على رأى بشأن الكرة الأرضية وكرويتها وكان الفكر الأوربي وقد
سيطرت عليه جمالة العصور الوسطى غير مستعد لقبول هذه الفكرة في الوقت
الذي كان فيه الجغرافيون العرب يجتمعون على هذه الحقيقة فيكتب ابن خردادبه
المتوفى ٨٨١ م أن الأرض مدورة كتدوير الكرة ويقول ابن رسته المتوفى ٩٠٣ م
أن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الأرض أجوف دوراً والأرض
مستديرة أيضاً كالكرة وقد أقام المسلمون الدليل على ما ذهبوا إليه من قول
ولولم يشع العرب نظرية كروية الأرض لما اخطر ببال رحالة مثل د كرسثوف
كولومبس ، أن الاتجاه نحو الغرب يمكن أن يؤدي به إلى الهند ولما كان في
استطاعته أن يكشف عن الدنيا الجديدة فالعرب لهم الفضل الكبير في الكشف
عن نصف الكرة الغربي ، لما أشاعوا من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين ،
وإن كانت هناك بعض الأقوال التي تذكر أن العرب قد اكتشفوا أمريكا قبل
أن يكتشفها كولومبس ، بعده قرون ، وقد يكون بعض المسلمين قد فكروا
فعلا في ارتياد بحر الظلمات وقد عني العرب فيما عنيوا به من دراسة الأرض وقياس
أبعادها وقد تمت هذه المحاولة العربية لقياس محيط الأرض في سهل سنجار بشمال
العراق في عهد الخليفة العباس المأمون وقد قام بهذا العمل الجغرافي وإلهام أولاد
حوسى بن شاكر .

علم الخرائط :

لقد أدرك المسلمون بفطرتهم السليمة أهمية الخرائط كوسيلة لتوضيح المعلومات
الجغرافية وكان محمد بن موسى الخوارزمي من أسبق كتاب المسلمين عناية بهذه
الناحية فقد أضاف مجموعة من الخرائط إلى كتاب صورة الأرض والذي يقول
عنه المشرق الإيطالي ناليتو ، لا تستطيع أمة غير الأمة الإسلامية في فجر
نهضتها أن تنتج مثله ووضع النجى أول أطلس عربي إسلامي ألحقه بكتابه وصور
الأقاليم ، وكان من ثمرات الجهود التي بذلها عصر المأمون هو عمل الخرائط التي

كان يسميها المسعودى الصورة المأمونية وقد اجتمع لوضعها عدد من علماء العصر وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وغامره ومساكن الأمم والمدن ومع أن المسلمين لم يتقدموا في فن عمل الخرائط تقدمهم في وضع المؤلفات الجغرافية فقد كانوا أصحاب الفضل في الحفاظ على التراث الخرائطي القديم ولقد كانت خريطة الادريس التي وضعها في (١١٥٤ م) هي الأثر الوحيد الهام في الكارونوجرافيا قبل القرن الرابع عشر وقد كانت الخرائط العربية أفضل بكثير جداً عن خرائط أوروبا المسيحية في العصور الوسطى .

و خلاصة القول أن الجغرافية الحديثة لم تنشأ نشأة فجائية وإنما تعود جذورها إلى العصور القديمة وكان المسلمون في العصور الوسطى هم حلقة الوصل بين القديم والحديث حافظوا على أروع ما في التراث الجغرافي القديم وأضافوا إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضارى ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية عن طريق الرحلات الواسعة والذي كان الرحالة ابن بطوطة وابن جبير من أشهر الرحالة وسجل هؤلاء الرحالة مشاهدتهم فيها بدقة ووضوح .

سادساً : اثر العرب والمسلمون في فن العمارة الاوربية :

مع انتشار الإسلام الانتشار السريع الواسع فإنه شهد نهضة عمرانية كبرى لم يحدث من قبل نظير لها إذ انبعثت في فترة وجيزة من الزمن مدن جديدة فقد أنشئت في العصر الأموي وحدة أكثر من خمسة وعشرين مدينة جديدة من بينها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط بالإضافة إلى المنشآت الأخرى الكثيرة واختطت في العهد العباسي مدن عديدة أخرى منها هاشمية الكوفة والمعمورة وبنداد وسامراء في العراق والمسكر ونيس والقطائع في مصر والعباسية ورقادة وسوسة ووهران وفاس في بلاد المغرب واتمت أيضاً مكة والمدينة ودمشق وحلب وأنطاكية وقرطبة ومثات غيرها من المدن في بلاد المشرق والمغرب والأندلس ونشطت حركة البناء والعمارة في هذا المدن جميعاً وبنيت حولها الأسوار والحصون وأقيمت المساجد والدور والقصور والأسواق والحمامات والأربطة وخزانات المياه والبيمارستانات والمدارس ، وازدهرت في

وقت واحد عواصم الإسلام والعروبة الثلاثة بغداد والقاهرة وقرطبة وصاحب النشاط المهارى نشاط الحرف والصناعات وتبعته نهضة كبرى وأقبل رجال الفن على إنتاج التحف الثمينة وأضاف العمار الإسلامية العربية إلى التراث الفنى العالى نظماً لم تكن معروفة من قبل مثل أنظمة المساجد والأضرحة والمدارس وأدخلت على نظم المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة جعلت لها فى العصور الإسلامية طابعاً يميزاً وابتكرت العمار الإسلامية عناصر كثيرة منها أشكال العقود، ابتكرت العمار الإسلامية كذلك أشكالاً جديدة من التيجان تختلف عما كان مألوفاً فى العمارات القديمة وابتكرت فى العصور الإسلامية الصنج المعشقة وظهرت أشكال المحاريب والبوابات واتخذت عنصراً من عناصر الزخرفة .

وانتشرت البوابات البارزة وأنتصبت المآذن والمنارات وازدهر الزخارف المهارية واتخذت لها خصائص امتازت بها عن سواها من حيث تصميمها وإخراجها الفنى واستخدمت الفسيفاء والقراميد والحجارة المختلفة الألوان وكذلك الفنون وكانت لها خصائص تمتاز بدقة الرسوم ودقة الصناعة وخصب الخيال وظهرت مجموعات إنشائية كاملة رائعة خالدة فى التاريخ الإسلامى مثل منابر المساجد ومثل المجموعات المختلفة من العصور الفاطمية وظهرت أوانى رقيقة الصناعة ، بديعة الزخارف والألوان ومن الزجاج صنعت أوانى أخرى مختلفة الأشكال ومشكوات المساجد ذات الشهرة العالمية ومن المعادن استخدمت الفضة والنحاس فى صناعة الأوانى وظهرت مرا كز شهيرة لصناعة المنسوجات وذاعت شهرة السجاد العربى فى دول أوروبا وكانت جدران قاعات الاستقبال فى قصور ملوكها وأمراءها تزدان بالأنواع الفاخرة منه بالإضافة إلى هذه الحقائق والابتكارات الفنية ، فقد انطبعت آثار العمار والزخرفة والتحف الإسلامية بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفنى مظهرآ وجوهراً .

ولقد نشأت العلاقات الفنية بين العرب والمسلمين من جهة وبلاد أوروبا من جهة أخرى ، التاريخ حافل بهذه التمازج فقد نشأت هذه العلاقة منذ القرن الثامن الميلادى وازدادت رابطة العلاقات بما يشاهده من عمائر العرب والمسلمين أفواج الحجاج

وهم في طريقهم إلى بيت الله المقدس من جهة ونشأت علاقات أساسها الرحلات وتبادل السفارات والرسائل والهدايا بين الأمم الإسلامية والأوربية ومن ذلك السفارة المشهورة بين الرشيد وشارلمان وسفارة الأمراء الغربيين إلى الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر وتسربت هذه العلاقات من جهة أخرى إلى إيطاليا واتصالها بالعرب في صقلية ومن انتقال المسلمين علماء وعمال إلى أنحاء مختلفة من القارة الأوربية .

ولقد تأثرت العمارة الأوربية في العصور الوسطى تأثراً بالغاً بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير في شمال أسبانيا منذ أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وفي مقاطعات «ليون» و «قشتالة» و «دولقة» وفي بلاد «قطالونيا» ، ولقد تأثر سكان هذه الأماكن بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية إذ كانت هذه التقاليد من القوى بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة الإسلامية قد ابتكرتها وطبقها في عمارتها ونشرتها شرقاً وغرباً .

وكانت أول العناصر ظهوراً وأكثرها انتشاراً العقود المنفوخة وقد ظهر العقد المنفوخ في المسجد الأموي بدمشق عام ٨٧ هـ / ٧٠٦ واستخدم بعد ذلك في المسجد الجامع بالقيروان ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م واقتنع رجال العمارة الإسلامية بمناعة بنيانه ورشاقه مظهره فبنوه وعمموا استخدامه بحيث أصبح عنصراً يميز العمارة الإسلامية وخاصة في بلاد المغرب والأندلس واقتبس الأوربيون عنصراً زخرفياً متصلاً بالعقد المنفوخ وهو إحاطة هذا العقد بإطار مستطيل وهو عنصراً ابتكرته العمارة الإسلامية وانتشر استعماله في بلاد المشرق والمغرب وتسرب إلى أوروبا وانتشر العقد الثلاثي ، وعلى هذه الصورة الفنية ابتكر هذا العقد في فرنسا وكان أعم وأوسع وقد اقتبس هذا النوع من الفتحات الثلاثية في أغلب دول أوروبا بما يدل على أن شكل هذا العقد اتخذ بعد اقتباسه من العمارة الإسلامية واستخدم في مناطق أخرى مع بعض الاختلاف والتطور وهذا معناه أن اقتباسه كان أول الأمر اقتباساً مباشراً من آثار الأندلس ومن المغرب والأندلس انتقلت أشكال العقود المفضضة إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من أجزاء أوروبا وانتقل العقد المدب كذلك

كذلك من العمارة الإسلامية إلى العمارة الأوربية وتطور فن العمارة تطوراً عظيماً وكان العقد المديب قد نشأ في العراق وانتقل إلى هذه الأماكن من القارة الأوربية .

واستخدمت العقود الصماء في زخرفة الأبواب والمواجهات والمحاريب في العمارة الإسلامية وظهرت في أشكال متشابهة في المسجد الجامع بقرطبة وعلى واجهة مسجد طليطلة وانتشر استعمالها في العمارة الإسلامية وبصفة خاصة في مآذن الأندلس والمغرب وكذلك انتقل إلى العمارة الانجليزية العقد المتعرج وقد ظهر هذا العقد أول ما ظهر في العمارة الإسلامية في قصر العاشق بالعراق عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م ثم عم استعماله في عمارة القاهرة واتخذت العقود الإسلامية أهمية كبرى من عناصر العمارة والزخرفة الأوربية واتخذت القباب الإسلامية طابعاً مميزاً وذات أعظم شأن وأعظم أثراً في فن العمارة الإسلامية وقد تطورت فكرة القباب العربية في مسجد الزيتونة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ثم تطورت القباب في قباب قرطبة وبدأت آثار هذا التطور تظهر في فرنسا وشمال أسبانيا وجنوب إيطاليا وليس هناك شك في أن العمارة الأوربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين اقتبست فكرة القباب الوردية من الأندلس والتي كانت بدورها تطور لفكرة تجزئة السكتلة القبوية المتبعة في القيروان وتونس منذ القرن التاسع الميلادي وكان هذا الاقتباس الأوربي مصدر نشأة العمارة القوطية ، تلك العمارة التي لها شأن عظيم في بلاد أوربا بأسرها .

وكان للمآذن الأندلسية وخاصة مآذنة المسجد الجامع بقرطبة التي اختفت الآن معالمها وأيضاً مآذنة مسجد أشبيلية ، أثر بالغ على أبراج الكنائس الأسبانية والأوربية سواء من حيث أشكالها المربعة القاعدة الشاهقة في الارتفاع وأثرت الشرفات الإسلامية في أوربا وقد ذكر أحد علماء الآثار الانجليز أن شرفات جنزان مسجد ابن طولون بالقاهرة والذي بنى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٩ م تعتبر نموذجاً لما اتبع فيما بعد في تفسيق الشرفات المنقورة القوطية ولم تلجأ الشرفات البارزة فوق البوابات أن انتشر استعمالها في القصور والحصون الفرنسية والانجليزية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر على نطاق واسع .

وفى سياق العمارة الحربية فإن هذه العمارة اشتقت فى البلاد الغربية من العمارة الإسلامية عنصراً ابتكر فى بناء مدينة بغداد وهو المدخل المزور حتى لا يكتشف الغنم الداخلى للمدينة عند اجتياز المدخلها وقد ظهرت هذه الحيلة فى بناء قلعتى القاهرة ، و حلب ، ثم أدخلها الانجليز والفرنسيين على عمارة حصونهم .

ولقد امتاز الفن الإسلامى العربى فيما امتاز بالعناية بالزخارف واتخذت هذه الزخارف خصائص انفردت بها دون سائر الفنون الأخرى سواء من حيث تصميمها أو من حيث إخراجها الفنى أو من حيث موضوعاتها وأساليبها وقد اعترف أحد علماء الآثار المستشرقين بأنه من الواضح أن العمارة فى العالم الأوروبى مدينة للعرب والمسلمين بدين كبير من حيث تأثير العمارة الإسلامية على العمارة الأوربية فهو واضح ملموس فى كل ما ذكرناه من اقتباسات أخذها الأوربيون عن المسلمين وتأثيره المباشر يؤكد اتصال الحلقات التاريخية ولقد اقتنع علماء الآثار المستشرقين بمقريه المعماريين المسلمين والعرب وأشاروا بابتكاراتهم واعترفوا بآثارها فى النهضة الأوربية كذلك اعترفوا بمقريه الفنان المسلم العربى فى الصناعات الفنية والزخرفية سواء كانت تلك الصناعات من ابتكاراته أم أنها كانت معروفة فى الحضارات القديمة فخذق العمال المسلمون صناعاتها وعرفوا الغرب المسيحي الأوربي أساليبها .

ولقد انتشرت التحف الإسلامية العربية فى أسواق أوروبا فى العصور الوسطى ولقيت فيها رواجاً كبيراً وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء ، بل رجال الدين أيضاً ، فأثارت الفيرة لدى الصناع الأوربيين وحاولوا ما وسعهم تفكيرهم تقليدها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة وقد فتح استثمار أوروبا للتحف الإسلامية الطريق أمامهم لتطور الفنون والصناعات الأوربية تطوراً كان من نتيجته نموها نمواً بارزاً بحيث أصبح لإنتاج التحف الفنية ضرورة من ضروريات عصر النهضة الأوربية ولعل أبرز مثل لذلك هو نابغة النهضة ، ليونارد دافنشى ، فقد أقبل على دراسة الزخرفة الإسلامية إقبالا لا يبرهن إلا على مدى الأهمية التى كانت تلك الزخرفة تكسبه لها فى ذلك العصر وفى الدراسات التى تركها ليونارد دافنشى نماذج عديدة من الزخارف الإسلامية .

وقد انتشرت بعد ذلك مراجع النماذج الزخرفية بفضل الطباعة ومصدر هذه الزخارف هو أسلوب الزخارف العربية وهو ابتكار إسلامي ظهر أول ما ظهر في الزخرفة الفاطمية وفي مسجد الأزهر في منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والخط السكوفي نوع آخر من الزخارف العربية ، غير أن التعلق بالزخرفة السكوفية لم يقتصر على رجال النحت والعمارة في أوروبا بل تعداهم إلى غيرهم من رجال الفن ولعل أغرب ما حدث من تأثيرات الخط السكوفي كان حافزاً لتطور الحروف اللاتينية ، فاتخذت حلية زخرفية وصورت على غرار الحروف الكوفية ثم اختلطت بعد ذلك الكتابة اللاتينية في العصر القوطي بالكتابة السكوفية وأصبح الناس يظنون أنها كتابة واحدة وظل التمييز في أوروبا بينها سراً دقيقاً طوال خمسمائة سنة .

وفي الخزف والزجاج كان للخزف في الفنون الإسلامية مكانة ممتازة وكذلك اشتهرت تلك الفنون بصناعة الزجاج وكان لإنتاجها يثير الإعجاب في أوروبا وخاصة الخزف ذو البريق المعدني الذي امتازت به صناعة الخزف العربي وقد استمرت صناعة هذا النوع من الخزف قائمة في أسبانيا بعد العصور الإسلامية ، بل إنه اكتسب شهرة جعلت كبار الأمراء في إيطاليا وفرنسا يرصون هذه المصانع بضع ألوان خاصة بهم تحمل أسمائهم وشعاراتهم .

ولقد قلد الخزافون الإيطاليون صناعة الخزف المعروف بطريقة الرسم بالحفر ، أما التحف الزجاجية فقد كانت تستجلب من مصر ودمشق لقصور الملوك والأمراء في أوروبا بل كانت تصنع خصيصاً لهم، وبدأ رجال الفن الإيطالي منذ القرن الثالث عشر وخاصة في مدينة البندقية التأثر بتأثير الأساليب المصرية ، والشامية وسرعان ما أنقن هؤلاء الصناع صناعة الزجاج وانتشرت طريقة الصناعة الفنية هذه إلى مراكز أوروبية أخرى فأخذت تنتج الألوان الزجاجية التي يظهر أثر الفن الإسلامي عليها واضحاً .

ومن ناحية المعادن فقد أحرز الصناع المسلمون تقدماً ملحوظاً في صناعة المعادن وبلغت مهارتهم ودقهم فيها مبلغاً فائقاً وأنتجوا منها مختلف التحف

ونقشوا مسطحاتها بزخارف رائعة الجمال ، هندسية ونباتية وحيوانية وآدمية وخطية وكانت التحف الإسلامية المعدنية تلقى رواجاً كبيراً في بلاطات الملوك والأمراء الأوربيين وكان من نتائج انتشارها أن ظهرت بمدينة البندقية مصانع للتحف النحاسية واتخذوا في صناعاتها من التحف الإسلامية نماذج استوحوا منها أساليب صناعاتهم وأشكالتها واتبع الفن الأوربي أسلوباً مماثلاً لأسلوب التسكفيت الإسلامي .

وأما عن الفسيف والفسج والسجاد العربي والإسلامي فقد ذاعت في أوروبا في العصور الوسطى شهرة هذه المنسوجات ودور الطراز التي كانت منتشرة في البلاد الإسلامية العربية والتي كانت تنتج من المنسوجات أنواعاً فاخرة ولقد أخذت مصانع الفسيف في أوروبا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة أولها مصدر مباشر نتيجة استيراد الملوك والأمراء للأقمشة من الشرق الإسلامي ، والثاني ناشئ من استمرار المراكز الصناعية الإسلامية في إنتاجها فترة طويلة من الزمن وفقاً للتقاليد الإسلامية ، وثالثها تأثير المصانع البيزنطية بالأساليب الإسلامية وإنتاجها أقمشة تحمل الطابع العربي .

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية في مجال الفسيف تلك العبادة التي أصبحت في صقلية لذلك روجر الثاني ، عام ١١٣٤/٥٥٢٨م ولقد قلدا الإيطاليون الفسيف الحريري الذي كانت تنتجه المصانع الإسلامية في صقلية وأصبحت لهذه الصناعة مراكز هامة في إيطاليا وبلغت صناعة الأقمشة الحريرية الأوربية المحلاة بزخارف إسلامية حداً كبيراً من إتقان التقليد بحيث كان يتعذر التفرقة بين الأقمشة المستوردة من البلاد الإسلامية وتلك التي تصنع في إيطاليا وكانت معظم هذه الأقمشة محلاة بزخارف موشاة بخيوط ذهبية وقد ظلت شهرة هذه المنسوجات الثمينة قائمة سنوات طويلة حتى أن مصنعا للفسيف في إنجلترا أخرج قطعاً من القטיפات الموشاة بالذهب تحمل الطابعين الإيطالي والعربي معاً .

وكذلك تأثرت صناعة السجاد الأوربي من صناعة السجاد الإسلامي وكانت السجاد التركي والفارسي تملأ القصور الأوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر

وكان السجاد الاسلامى معروفاً من قبل ذلك بمدة طويلة في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وكان الصناع الأوربيون يقلدون كذلك نسيج السجاد الفارسى وما زالوا يقلدونه حتى اليوم ، وأصبحت المصانع الألمانية تفتح السجاد على نطاق واسع تقليداً مطابقاً لمظاهره الأصلية الإسلامية الشرقية .

التجليد :

امتدت التأثيرات الفنية الإسلامية في فن تجليد الكتب ومن المعروف والثابت تاريخياً وحققياً أنه يرجع إلى المسلمين الفضل الأول والآخر في إدخال صناعة الورق إلى أوروبا وكان لهم أيضاً فضل توجيه العناية إلى تجليد وزخرفة الكتب ومن المؤكد أن الأوربيين أخذوا عن المسلمين والعرب هذه الصناعة وكذلك تزويد جلدة الكتاب بلسان لحاية الأطراف الخارجية للمخطوط وكذلك أخذ الأوربيون عن المسلمين طريقة تذهيب المجلدات وشاع استخدامها منذ القرن الخامس عشر الميلادى وكذلك كان بالبندقية مركز عام للتجليد وكان القائمون بالعمل فيه صناعاً مسلمين وإليهم يرجع الفضل في إحياء طرق التجليد الإسلامية واستمرارها في أوروبا .

التصوير :

لم يكن لفن التصوير الإسلامى تأثيراً كبيراً على فن التصوير الأوروبى إلا أن بعض المصورين الأوربيين ، قد نقل بعض الصور الشرقية في لوحاتهم فقد رسموا في صورهم سجاداً إسلامياً ، غير أن الأثر الإسلامى الواضح في التصوير الأوروبى كان في تشكيل الموضوعات الزخرفية نقلاً عن مصادرها العربية أو صور أشخاص بملابس عربية ، ومن هنا فإن أثر العرب والمسلمين في تطور العمارة والفنون الأوربية كان كبير جداً وبلغ نواحي كثيرة واستمر قروناً طويلة .

وقد امتد هذا الأثر إلى معظم بلاد أوروبا الغربية ، بل أنه امتد كذلك إلى مراكز الفن البيزنطى في شرق أوروبا ، وما زالت روائع العمارة والفنون الإسلامية المنتشرة في أنحاء العالم الشرق والغرب تجتذب أنظار الأوربيين .

سادساً : اثر العرب والمسلمين في الموسيقى :

تمتد جذور الموسيقى العربية إلى آلاف السنين بل إن الموسيقى العربية ترجع بدايتها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ولم يكن افتتان العرب في الموسيقى مقصوراً على ضبط فنون الغناء أو العزف أو التعرف ، والتعرف إلى أصول الموسيقى وقواعدها واستكمال الآلات الموسيقية وتطور صناعاتها ولقد نبغ بعض الفنانين العرب في الغناء والطرب وفن الموسيقى ولما سمعت أوروبا وشاهدت ذلك الرقي الحضاري في قصور الخلفاء والأمراء في بغداد والأندلس وصقلية فإنها أرسلت إلى حواضر البلاد العربية والإسلامية بالطلاب الذين لهم ميول فنية في الغناء والطرب وفن الموسيقى لكي يتعلموا فن الموسيقى من معاهد المسلمين وجامعاتها ولكي يتذوقوا الفنون والعلوم التي وفد طلاب أوروبا لدراساتها وترجمة كتبها فتعلمت أوروبا الكثير من كتب العرب في الموسيقى كؤلغات الفارابي وإخوان الصفا ، وابن سينا وصفي الدين عبد المؤمن الارموي وابن ماجه وغيرهم .

وقد ذكر المؤرخون أن هذه البعثات الأوربية التي وفدت إلى حواضر العالم العربي الاسلامي قد بلغ أفرادها عام ٢٧٠ هـ أكثر من ٧٠٠ طالب من مختلف مقاطعات أسبانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية ، وذلك في عهد عبد الرحمن الأوسط وقابعت هذه البعثات الطلابية من أوروبا إلى مدرسة تدريس الموسيقى والفن والتي كانت مقامة في قرطبة والتي كانت تدرس بها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات وفنون الشعر والرقص وغيرها من المدارس واتسع أمام أفرادها المجال لتعلم هذه الفنون الإسلامية الراقية .

ومن ثم عندما يعودون إلى بلادهم الأوربية فإنهم ينقلون إليها من علوم الموسيقى العربية وفنونها ما بعد اللبثات الأولى في بناء النهضة الفنية في أوروبا وربما تعتبر تلك العلوم الموسيقية التي تلقاها هؤلاء الطلاب الشعلة التي أضاءت للفن الموسيقي الأوربي طريقه إلى عصر النهضة وظل اتصال أوروبا بالمدينيات العربية الإسلامية وثيقا نتيجة لعوامل أخرى سياسية وثقافية وبخاصة بعد أن تقابعت الفتوحات الإسلامية وتلاحقت حتى استقرت أقدام المسلمين فوق جهات أوربية متعددة في شرق القارة وغربها وجنوبها .

وانتظمت حركة القوافل التجارية بين المسلمين وبين مختلف البلدان الأوروبية وكانت كل هذه العوامل قد وثقت الصلة بين المسلمين وسائر البلاد الأوروبية وهرت المدنية الاسلامية أوروبا ومتقفيها وأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والعلوم في أوروبا وأصبح الشباب الأوروبي يردد الأغاني العربية في نواديهم ومجتمعاتهم ومن ثم عرفت أوروبا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين وهم يعرضون أغانيهم ورقصاتهم الشعبية وعرفت أوروبا ألوانا جديدة من الغناء الشعبي والتي ظهرت في جنوب فرنسا وألمانيا وإيطاليا .

وكذلك فإن أوروبا تدين للمسلمين في كثير من آلاتها الموسيقية فقد انتشرت منذ القرن التاسع الميلادي في ممالك أوروبا ولاسيما في البلاد الغربية من القارة الأوروبية وأيضاً في جنوبها الآلات الموسيقية العربية مثل العود ، وما كاد العود ينتقل من الأندلس إلى سويسرا حتى أصبح في القرن الثاني عشر الميلادي من آلاتها الموسيقية الشائعة ، كما لاقى رواجاً كبيراً في ألمانيا وفي إيطاليا ثم في بقية البلاد الأوروبية .

وكذلك فإن أوروبا عن طريق انتقال العود إليها سرعان ما امتدت إلى التدوين الجدولي وهكذا عرفت أوروبا عن طريق العرب ألواناً مختلفة من التدوين الجدولي للعود وكان من أهمها هذه الأنواع الثلاثة التي استعملتها فرنسا وألمانيا وإيطاليا وكان هذا التدوين الجدولي البداية التي أضاءت الطريق لأوروبا لاستكمال التدوين التي تحدد به النغمات وتضبط الموسيقى زمنها وإيقاعها ، وظل استعمال العود منتشراً في أوروبا في جميع الأندية والمجتمعات والمنازل حتى بداية القرن الثامن عشر حيث أثر على ذبوعه انتشار آلة البيانو ، وكان أول تعرف أوروبا بالآلات الوترية ذات القوس حوالي القرن الحادي عشر حين انتقل إليها الرباب العربي .

وقد ظهرت أقدم آلات الرباب عند العرب ثم انتقلت تلك الآلة مع العرب إلى الأندلس ومن ذلك الحين عرفت أوروبا الآلات الوترية ذات القوس وبدأت تظهر فيها وبخاصة في المناطق المتاخمة للأندلس وفي فرنسا وألمانيا وإيطاليا فقد

صنع الفرنسيون آلة تماثيل الرباب العربية ونجم عن انتقال تلك الآلات العربية إلى أوروبا ما لا يقل أهمية عن تعرفهم إلى تلك الآلات فقد أفادت أوروبا بما صنعه العرب من كل الآلات التي صنعوها .

وبذلك فإن المسلمين قدموا لأوروبا فن الموسيقى وآلاتها وفن الرقص والغناء والطرب الشيء الكثير الذي استوعبه هؤلاء الأوروبيين وأبدعوا فيه ، ومن ثم فإنه يمكن القول أن الإسلام والمسلمين قدموا لأوروبا خلاصة ما ملكت أيديهم من كل فروع المعرفة الإنسانية التي كانت معروفة وشائعة في العصور الوسطى والتي بدونها ما استطاعت أوروبا أن تنصر إلى ما وصلت إليه من تقدم حضارى وثقافى وعلمى

خاتمة

من تلك الدراسة التي نقدمها للقارىء الكريم يتضح لنا أن العرب سكان الجزيرة العربية ما أن اجتمعت كلتهم على شهادة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله وتوحدت جزيرتهم العربية تحت راية التوحيد راية لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى تركوا كل الخلافات القبلية والمشاحنات الأسرية ونبذوا كل هذه الأمور وراء ظهورهم ، بذلك ظهرت للعالم دولة الإسلام الأولى التي اتخذت من المدينة المنورة عاصمة لها وبعد أن أقام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم دعائهم دولة قوية إسلامية ، ثم ما أن استقرت الأمور في الدولة الإسلامية الفتية الناشئة حتى خرج المسلمون من جزيرة العرب يرفعون راية الإسلام ، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خفاقة عالية فوق كل الأرض المعمورة وفي كل مكان يقطنه بشر وذلك لكي ينشروا رسالتهم الإسلامية الخالدة وذلك لأن هدفهم الأول والوحيد هو نشر تلك الرسالة ، ولم تكن لهم أية أهداف أخرى كما حاول بعض المؤرخين من رجال الغرب المسيحي أن يبين أن العرب في زحفهم الكاسح من الجزيرة العربية كانت لهم عدة أهداف منها أهداف سياسية واقتصادية ودينية وقول هؤلاء مردود عليهم لأن الهدف الأسمى والأول والآخر هو الجهاد في سبيل نشر الإسلام في شتى بقاع الأرض المعمورة .

وإذا خرجت الموجات الإسلامية المؤمنة برسالة الخالق الأحد ، العاملة أقصى جهدها على نشرها لكي تحتاج أراضي الدولتين الكبيرتين في ذلك الوقت واللتين كانتا تسيطران على مجريات الأمور في العالم القديم (فارس ، بزنطة) واستطاعت الموجة الإسلامية أن تسكتهم أمامها كل أوثان الشرك في فارس وأجزاء كبيرة من الدولة البيزنطية وانطوت تحت لواء الإسلام كل من مصر والشام والشمال الأفريقي وخضعت شواطئ البحر الأبيض الجنوبية والشوقية لهدى الإسلامى ودخل أهالى تلك البلاد في الدين الإسلامى الحنيف أفواجا طوعا لا كرها وخرجوا يشاركون إخوانهم أهل الجزيرة في نشر رسالة الحق والصدق والبقاء .

ولم يكن انطواء هذه الافطار تحت الراية الإسلامية إلا مقدمة للزحف الإسلامى إلى بقية الأجزاء الأخرى من العالم القديم والمعروف في ذلك الوقت بقاراته الثلاثة آسيا وأفريقيا وأوروبا ولما كان الإسلام قد بسط لوائه على أجزاء كبيرة من قارتي آسيا وأفريقيا فكان لابد أن يتجه الإسلام والمسلمون بأنظارهم صوب القارة الأوربية لاطوائها في ظلال القرآن وتحت راية الإسلام .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كان هو أول واضع لفكرة غزو القارة الأوربية ونشر الإسلام بها إذ حين جاءته البشائر بفوز الجيوش الإسلامية في شمال أفريقيا على جيوش البيزنطيين ، فإنه نذب القاطنين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع وكانا على الأسطول الإسلامى وأمرهما بالسير إلى الأندلس وكتب لها وصية سياسية تلك الوصية التى يقول رضى الله عنها أن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس وإن فتحتم ما أنتم بسبيلها تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر ، وأن أول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ غزو أوروبا ، هو القائد حسان بن النعمان ، بعد أن دان له شمال القارة الافريقية بالسمع والطاعة .

وما أن آلت الأمور في الدولة الإسلامية إلى معاوية بن سفيان والذي نقل مقر الخلافة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق حتى وضع نصب عينيه ضرورة فتح أوروبا وكان شرق أوروبا هو الأقرب إلى دمشق من غربها فكانت فكرة غزو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والتي ولأن استطاع المسلمون فتحها بعد ذلك فإنهم سوف يفساحون في سهول أوروبا الشرقية الواسعة يمدوا الإسلام إلى كل تلك الأجزاء من القارة الأوربية .

وكان معاوية بن أبي سفيان قد خبر قوة الدولة البيزنطية في عدة معارك سواء ما كان منها برأ أو بحراً والتي كانت معركة ذات الصواري أول نصر بحرى إسلامى على قوى الروم البحرية والتي استطاع الأسطول الإسلامى الناشئ أن يلحق الروم درساً لن ينسى في فن القتال البحري الإسلامى وأن يعرفهم قوة الأسطول الإسلامى البحرية وأنه منذ ذلك الوقت انكمش الأسطول البيزنطى

في مواثبه وبدأ يعمل للاستيلاء على الإسلام في البحر المتوسط ألف حساب .

المهم كانت فكرة غزو القسطنطينية باعتبارها المفتاح الموصل إلى بوابة أوروبا من الشرق فكانت فكرة غزوها فكرة صائبة وجهاز معاوية لتلك الغزوة كل ما يلزمها من رجال وعتاد ومؤن وتحركات القوات الإسلامية لدرء الخطر البيزنطي لحصارها واستمر حصارها فترة سبع سنوات ولكن وفاة معاوية ابن أبي سفيان حالت دون إتمام فتح المدينة البيزنطية ، لذا فإن المسلمون رأوا أنه من الضروري الاتجاه إلى فتح أوروبا من طرفها الغربي (الأندلس) بعد أن وقفت عدة مصاعب دون فتحها من الشرق وكان الاتجاه إلى غزو الأندلس والوصول إلى دمشق عن طريق روما والقسطنطينية بعد أن يخضع المسلمون كل أوروبا للدين الإسلامي وهم في طريقهم من الأندلس إلى دمشق .

ومن ثم فقد تم فتح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وما أن استقرت الأمور في الأندلس واستتب الأمن والنظام بعد القضاء على الجيوب الشمالية التي كانت لا تزال تقاوم المد الإسلامي في شبه جزيرة أسبانيا ، حتى بدأ موسى بن نصير يفكر ويستعد للزحف بقواته شمالاً عبر أراضي القارة الأوروبية والوصول إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية لفتح القسطنطينية من جهة الغرب ، ومن ثم فإنه بدأ يخترق جبال البرانس الفاصلة بين دولة القوط التي قوضها المد الإسلامي في الأندلس وبين دولة الفرنجة المترامية الأطراف وذلك لدرء الخطر الذي بدأ يهدد الدولة الإسلامية الناشئة في الأندلس وإقامة حكم إسلامي في فرنسا والقضاء على دولة الفرنجة وتحقيق الحلم الكبير لموسى بن نصير في الوصول إلى دمشق بعد أن تم له السيطرة على كل أوروبا في كل طريق زحفه ، ولكن من أجل هذه الفسكرة والمشروع الإسلامي الجريء فإن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعى قائده موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد وذلك خوفاً من أن يلعب النصر السريع الذي أحرزه موسى بن نصير في الأندلس برأسه فيغرر بالمسلمين في أراضي أوروبا الواسعة ويقودهم في طريق لم يسلكه فاتح من قبل ، وأنه لولا تردد الخلافة الأموية وتردد خلفائها لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه

الكبير في اختراق أوروبا من الغرب إلى الشرق والوصول إلى دمشق عن طريق روما والقسطنطينية وكان من المرجح في ذلك الوقت أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية على أيدي المسلمين وذلك لأن الظروف السياسية في أوروبا كانت مساعدة على اكتساح امبراطورية الفرنجة ونشر رسالة الإسلام الخالدة بها .

وعلى الرغم من توقيت المهة الاسلامى فى عهد موسى بن نصير وابنه عبد العزيز فى جنوب فرنسا ، إلا أن إتمام غزو كل أوروبا كان فكرة تسيطر على أذهان القادة المسلمين فى الأندلس ، ومن ثم توالت الغزوات فى أراضى فرنسا غزوة تلحقها غزوة حتى وقعت معركة بلاط الشهداء بين القائد المسلم أنجاء عبد الرحمن الغافقى وبين شارل مارتل ومن وراءه قوى أوروبا الغربية كلها وتوقف المد الإسلامى شمالاً عند أبواب مدينة بوانيه .

وكان المسلمون قد خططوا أيضاً بعد أن تمكنوا من الأندلس على ضرورة فتح القسطنطينية للتقدم غرباً وتقوم قوات الأندلس بالتقدم فى أوروبا شرقاً ، فأرسل سليمان بن عبد الملك الحملة الإسلامية الثانية لغزو مدينة القسطنطينية ورغم الحشد الإسلامى الكبير إلا أن هناك عوامل خارجة عن إرادة المسلمين حالت دون إتمام فتح المدينة وبسط لواء الإسلام فوق أرجائها .

ولكن الأمور فى العالم الإسلامى لم تسكن على خير ما يرام ، إذ حدثت بعض الانقسامات الداخلية والخلافات الأسرية والتي ساعدت على سقوط الدولة الأموية وما تبع ذلك من انقسام بين الأسرة الإسلامية الواحدة وقيام الخلافة العباسية عن أنقاض الخلافة الأموية وانتقال مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد ، ولقد أولى الخلفاء العباسيين جل اهتمامهم لنشر الإسلام فى آسيا مع عدم إهمالهم أوروبا ، وإن كان فكرهم لا زال يمتد لفتح القسطنطينية فقط وذلك لقيام الدولة الأموية فى الأندلس على الطرف الغربى لدولة الإسلام .

ومع قيام الدولة الأموية فى الأندلس وسيطرة عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور فى تلك البلاد الواسعة البعيدة عن مقر الخلافة العباسية فى العراق ، فإن ذلك قد أوجد انقساماً حاداً فى الدولة الإسلامية ولقد ساعد هذا الانقسام

الذى حدث في العالم الاسلامى بين الامويين والعباسيين على إعاقة حركة المد الاسلامى فى أوربا ، مع العلم بأن الظروف السياسية فى العالم الاسلامى — قيام الدولة العباسية — كانت مهيأة لنشر راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فى باقى الأقطار الأوربية التى لم تكن قد وصلتها تلك الولاية .

ورغم انقسام العالم الاسلامى وقيام دويلات إسلامية صغيرة فى مصر وشمال أفريقيا ، إلا أن حكم تونس من بنى الأغلب والذين انفصلوا عن الدولة العباسية كان لهم دور هام ونشاط بارز وفعال فى سبيل الدعوة للإسلام ونشر رسالته فى أوربا ، إذ أننا نجد أن بنى الأغلب بعد أن توطد لهم السلطان واستقام لهم الأمر فى تونس ، قد عقدوا العزم على مواصلة الجهاد فى سبيل رفع راية الإسلام خفاقة عالية ، ونصب ألوية الإسلام والعروبة عالية فوق الأراضى الأوربية .

وكان أن تم لبني الأغلب غزو صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا وتوطيد دعائم الإسلام فى هذه البلاد التى أصبحت جزء من العالم الإسلامى العريض بعد أن توطدت دعائم السيادة الإسلامية ، كذلك فقد استمر خروج الحملات البحرية الإسلامية من الشواطئ التونسية غازية فى سبيل الله وفى سبيل نصرة دينه الخنيف .

ومن هنا فإنه يمكن القول بأن حكم تونس من بنى الأغلب الأشاوش كان لهم نصيب موفور فى نشر عقيدة الإسلام فى أوربا وكانت خططهم الوصول بالإسلام إلى الشمال أكثر منه بعد أن استقر فى جنوب القارة ، إذ أنهم عملوا ما وسعهم الجهد والعمل من أجل نشر الإسلام فى تلك الأرجاء الواسعة من القارة الأوربية .

ولسكن الظروف السياسية فى شمال أفريقيا قد شهدت نوعاً من التغيير فى نظم الحكم والدولة ، إذ قامت فى تلك الأنحاء الدولة العبيدية الشيعية الفاطمية فى مدينة المهدية ، واستطاعت القضاء على دولة بنى الأغلب التى كان لها دور كبير لا ينسكه أحد فى نشر الرسالة الخالدة فى أوربا ، ولأنه لولا هذا التغيير السياسى الذى طرأ فى شمال القارة الأفريقية لتغيرت خريطة أوربا السياسية ولتوطدت دعائم الإسلام فى كثير من البلاد الأوربية ، ذلك لأننا نلاحظ من خلال الوقائع

التاريخية أنه ما أن استقرت الأمور في جزيرة صقلية حتى بدأ التفكير في غزو إيطاليا وتم لهم ما أرادوا إذ استطاعت قوات الأغالبة بمساعدة القوى البحرية الإسلامية لدولة كريت الإسلامية أن تضع أقدامها على أرض البرالكبير (إيطاليا) لكي تنطلق منها شمالا لغزو باقي أوروبا .

كذلك فإن الدولة الإسلامية في الأندلس بعد أن استقرت أوضاعها عملت على نشر الإسلام في أوروبا شمالا فأرسل عبد الرحمن الداخل حملة إسلامية إلى فرنسا لمساعدة المسلمين الذين كانوا لا زوا يسيطرون على كثيراً من الأنحاء في جنوب فرنسا ولكن هناك ظروفًا حالت دون عبور تلك الحملة للجمال البرانس ، وهذا يؤكد عزم الدولة الأموية على نشر الإسلام في أوروبا ، كذلك فإن الأمويين حكم الأندلس هم الذين شجعوا المجاهدين من أهل الأندلس بعد أن مدوا لهم يد المساعدة من إقامة الدولة العربية في سويسرا والتي قامت على أجزاء من الإمارات المسيحية المجاورة واعترفت بها بماسكة ، لومبرديا ، في شمال إيطاليا وعقدت معها المحالفات بعد أن رأت أن الإسلام يهدد كيائها ولا سيما أن نفوذها قد امتد إلى حدود ألمانيا والنمسا إلا أنه لولا المساعدات التي قدمها حكم الأندلس سواء من الرجال والعتاد والسلاح والسفن لما استطاع المسلمون أن يوطدوا نفوذهم ويمدوا حدودهم على تلك الأفصاع من القارة الأوروبية .

وقد تكون تلك العلاقات والصلات القوية التي ربطت بين دولة الفرنجة في فرنسا وشمال أوروبا وبين الخلافة العباسية في بغداد ، تلك العلاقات التي قامت بين شارلمان امبراطور الفرنجة والحليفة هارون الرشيد قد حدت من حركة القوى الإسلامية في الأندلس وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا من الانطلاق بالمد الإسلامي من جديد في سهول أوروبا الشمالية .

كذلك قيام ثلاث خلافات إسلامية في وقت واحد في العالم الإسلامي فالخلافة الأموية في الأندلس (قرطبة) والخلافة الفاطمية في مصر وشمال أفريقيا وبلاد الشام والخلافة العباسية في بغداد ، وما ترتب على ذلك من انقسام خطير في صف الوحدة الإسلامية ومناصبية بعضهم البعض العداء فالخلافة الفاطمية كانت

تناصب الخلافة العباسية العداء ، والخلافة الأموية تناصب الخلافة العباسية العداء أيضاً والخلافة الفاطمية تناصب الخلافة الأموية العداء ، وأيضاً الخلافة الأموية تناصب كلتاها العداء .

وقد أدى هذا الانقسام في العالم الاسلامى إلى عدم التركيز على إتمام الغزو الاسلامى والجهاد لإتمام غزو الجزء الباقي من البلاد فى القارة الأوروبية ، بل إن هذا الانقسام أدى إلى ضياع الأراضى العربية الاسلامية فى أوروبا من أيدي المسلمين ونضت على كل الآمال المتعلقة فى سبيل نشر الاسلام وإخضاع القارة الأوروبية للهد الاسلامى .

ومع كل هذا فإن الاسلام والمسلمين وطردوا نفوذهم وأقاموا دولتهم الإسلامية فترة من الزمن فى فرنسا وسويسرا وجنوب إيطاليا وفى جزر البحر المتوسط كلها كقبرص ورودس وكريت وصقلية ومالطة وسردنية وكورسيكا وجزر البليار ، وذلك بعد أن أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية إسلامية تخضع للنفوذ الإسلامى بعد أن سيطرت البحرية الإسلامية على هذا البحر من جميع جوانبه فترة من الزمن تزيد عن ثلاثة قرون كانت فيها البحرية الإسلامية هى صاحبة السكينة العليا والسيادة فى ذلك البحر .

كذلك فإن عدم سيطرة المسلمين على مدخل أوروبا الشرقى ، القسطنطينية ، فإن ذلك لم يحل دون وصول الرسالة الإسلامية إلى شرق القارة الأوروبية ، إذ نجد أن الإسلام قد توطد وقويت دعائمه وازداد نفوذه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى كل بلاد الصقلية وبلغاريا ، التى كانت تشمل على جزء كبير من شرق أوروبا وأيضاً فإن الإسلام امتد من بلغاريا إلى بلاد المجر وأصبحت هذه البلاد الواقعة فى شرق أوروبا بلاد إسلامية انطوت تحت راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وارتبطت بالعالم الإسلامى بروابط قوية وصلات وثيقة ذلك لأنها اجتمعت مثل غيرها من البلاد الأوروبية الإسلامية على كلمة التوحيد .

هذا من ناحية انتشار الاسلام فى القارة الأوروبية والظروف التى صاحبت ذلك المد الإسلامى القوى فى تلك الأرجاء من القارة الأوروبية سواء فى طرفها الغربى والأوسط والشرقى وماهى المراحل التى مر بها ذلك التوسع الإسلامى ،

وما هي الظروف التي عاقت حركة المد الاسلامي من الوصول بالاسلام إلى كل بلاد القارة الأوروبية .

أما عن الاسلام ودور الثقافة العربية الاسلامية في أوروبا فإن أي دارس للتاريخ الاسلامي وحركة انتشار الاسلام في العالم القديم وأي منصف للحقائق التاريخية فإنه لا يستطيع أن ينكر دور الاسلام وفضل الاسلام والعرب والمسلمين لبصالة الحضارة الاسلامية وثقافتها الراقية إلى دول القارة الأوروبية ، إذ أنه لولا مآثر الاسلام العلمية والحضارية ونشر المسلمون لذلك التراث الاسلامي الراقى المتقدم والمنطور إلى تلك الأجزاء من القارة الأوروبية والتي انطوت تحت راية الاسلام وإلى الأجزاء التي اتصلت بالحضارة الاسلامية في أوروبا أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم حضارى ورقى تزهو به اليوم .

إذ من الثابت تاريخياً والمؤكد بالحقائق والأدلة الدامغة أن الاسلام والمسلمون عندما دخلوا أوروبا كانت شعوب أوروبا في كل أقطارها لا تزال تعيش في مجاهل القرون الوسطى وتعيش عصور الظلام ويسيطر على تلك الشعوب الجهل والهمجية والمرض والفقر وتنتشر بينهم الأوبئة والجرائم وأعمال العصابات ، ويعترف بذلك أحد كتاب الغرب فيقول إن الذي أعاق المسلمون عن التقدم في إيطاليا ، تلك الحياة البدائية المتوحشة التي كان يحياها شعب ذلك الإقليم الأوربي وانتشار المستنقعات حول القرى وما صاحب ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة ولم تسكن تلك الشعوب قد بدأت تتأثر بعد بأفوار الحضارة الاسلامية .

ولسكن وصول الاسلام وما صاحب ذلك من تقدم حضارى وثقافى وعمرانى للأجزاء التي انطوت تحت لواء الاسلام، جعل الشعوب الغربية تصحوا من سباتها وتهب من غفوتها على أضواء الحضارة الاسلامية العربية التي كانت سيدة وأستاذة الحضارات العالمية طوال ثلاثة قرون متواصلة ، بل هي الحضارة الوحيدة المتربعة على عرش العالم القديم بقاراته الثلاثة .

ويعترف بذلك عدد كبير من مفكرى الغرب ومنهم « آدم مترز » ، « غوستاف لويون » ، « أنولد تويني » ، « برناد شو » ، « سيديووا » ، « زيفرد هونكه » ، وغيرهم من

العلماء المنصفين والمعترفين بفضل العرب والمسلمين على الحضارة العالمية وخاصة الحضارة الأوربية .

ذلك أن العرب والمسلمين كان لهم دورهم الهام والفعال في دفع حركة التقدم الحضارى والعلى والفكرى فى العالم إذ أنهم ساهموا مساهمة لا ينكرها أحد فى إثراء المعارف الانسانية سواء أكان ذلك فى الآداب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والفلك والطبيعة والكيمياء والاحياء والرياضة والعلوم والنبات والحيوان والطب والصيدلة وعلم البيطرة ، والعمارة والهندسة والموسيقى وفى كل المعارف الانسانية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ولقد قام حكام البلاد الأوربية ، ملوكها وأمرائها ووزرائها بعد أن تبينوا ما وصل إليه العالم العربى الاسلامى من تقدم علمى قاموا بإرسال البعثات الطلابية إلى شتى أنحاء العالم الاسلامى وخاصة تلك الأقطار القريبة منهم (الاندلس وصقلية) وقد تتلذذ هؤلاء الطلاب الذين جاءوا من شتى البقاع الأوربية كفرنسا وإيطاليا وألمانيا إنجلترا وغيرها من البلاد الأوربية الأخرى على أيدي كبار العلماء والفلاسفة المسلمين الذين نبغوا فى كل فن من فنون المعرفة الانسانية ، وذلك لأن الحضارة الاسلامية العربية كان قد تم تطويرها نحو المستوى الرائع الذى بلغته ، وقد بلغت الحضارة الاسلامية قمة مجدها الذهبى فى عهد الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المأمون وهارون الرشيد وكذلك فى عهد حكام بنى أمية فى الأندلس وذلك فى أواسط القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ويعود الفضل للعرب فيما وصلت إليه حضارة الغرب إذ أن المسلمون كانوا قد وصلوا إلى مستوى حضارى وثقافى وعلمى مرموق فيما بين القرنين الثالث الهجرى والسابع الهجرى ، التاسع والثانى عشر الميلادى ، حيث كانت الجامعات الاسلامية فى الأندلس ينفذ إليها طلاب العلم من شتى أقطار الغرب ، وكان المسلمون هم الذين نقلوا إلى أوروبا طريقة البحث العلمى والذين ساروا على دربه فيما بعد .

وكانت حركة الترجمة التى قامت بها الدول الأوربية فى الأندلس وصقلية ، حيث جمعوا الآلاف من المخطوطات العربية الاسلامية فى شتى العلوم والمعارف وقاموا بترجمتها من العربية إلى العبرية ثم من العبرية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات المحلية ، الانجليزية والفرنسية والألمانية) هى الأساس الأول الذى قامت عليه

حضارتهم إذ أنهم أخذوا ينهلون من هذه المخطوطات كل المعرفة التي توصل إليها العقل العربي الاسلامي .

إن الآلاف من المخطوطات العربية الإسلامية التي تزخر بها مكتبات دول الغرب في الوقت الحالي سواء في الفاتيكان أو في روما وهولندا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا وغيرها من دول أوروبا الغربية والشرقية خير دليل على اعتماد الحضارة الأوروبية في نهضتها التي قامت في عصر النهضة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ عن طريق هذه الذخائر العلمية ، استطاعت أوروبا أن تكمل السير في الطريق الذي سار فيه المسلمون دون أن تبدأ من حيث بدأ المسلمون ، ذلك لأنه لولا هذا التراث والتقدم العلمي الإسلامي لهدأ الأوروبيون من أول الطريق إذ أن ما قدمه إليهم المسلمون وفر عليهم قروناً عدة في البحث والدراسة .

وعلى أية حال فإن دورنا نحن العرب والمسلمون في بناء الحضارة الحديثة التي تتطور كل يوم تطوراً سريعاً في مجال الاختراعات التي تفوق الوصف والتي أبدعها وابتدعها العقل البشري لا يستطيع أن ينكره أحد ، ذلك لأن الذي منحته أستاذة الحضارات - الحضارة العربية الإسلامية - طوال ثلاثة قرون كان هو السبب المباشر لتلك الحضارة التي نعيشها اليوم .

وأنه لولا الانتكاسات التي مني بها العالم العربي والإسلامي على أيدي المغول والتتار والصليبيين والاستعمار الأوروبي الحديث ، ولولا الخلافات المذهبية والفتن والدسائس والأهواء الشخصية ، لما تأخر ركب الحضارة العربية الإسلامية ، كل هذا التأخر قد أفسح الطريق لحضارات أخرى لتتولى قيادة البشرية ولكن العرب والمسلمون بحق هم قادة ذلك التقدم العلمي الهائل الذي تشهده البشرية اليوم مع إختفاء الجانب الروحي من ذلك التقدم العلمي .

المراجع العربية والمصرية

- ١ - ابن الأثير ، أحمد بن علي : المكامل في التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٩٣٣ م .
- ٢ - ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مصر دار الكتب ، د . ت .
- ٣ - ابن حوقل ، أبو القاسم النصبي صورة الأرض ، لندن ، ١٩٣٨ م .
- ٤ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة ، بيروت ، ١٩٦٧ م .
- ٥ - ابن طباطبا ، محمد بن علي السطقطقي : الفخرى في الآداب السلطانية ، القاهرة ، ١٢١٩ م .
- ٦ - أبو الفدا ، إسماعيل بن علي : تقويم البلدان ، لندن ، ١٨٤٠ م .
- ٧ - أبو الفدا ، إسماعيل بن علي : المختصر في أخبار البشر ، تاريخ أبو الفدا ، بيروت ، دار المعرفة ، د . ت .
- ٨ - أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٦٤ م .
- ٩ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٣٨ م .
- ١٠ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، القاهرة ١٩٣٥ م .
- ١١ - السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر : غزوات قبرص ورودس ، فنيسيا ، ١٨٨٤ م .
- ١٢ - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
- ١٣ - عمر فروخ : العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض ، بيروت ١٣٧٨ هـ .
- ١٤ - طرخان ، إبراهيم علي : المسلمون في أوروبا في المصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ م .
- ١٥ - البكري ، أبو عبيد الأنديلسي ، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا ، والمغرب ، الجزائر ١٩١١ م .

- ١٦ — ابن سميّد ، أبو الحسن بن موسى الأندلسي : المغرب في حلّ المغرب ،
القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٧ — السلاوي ، أحمد بن ناصر : الاستقصام في أخبار المغرب الأقصى ،
القاهرة ، ١٩١٨ م .
- ١٨ — القلقشندي ، أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، القاهرة ،
١٩١٨ م .
- ١٩ — جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى ، القاهرة ، مكتبة
الخانجي ١٩٧٤ م .
- ٢٠ — جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث ،
القاهرة ، د . ت .
- ٢١ — جيب ، هاملتون : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس ،
بيروت ، دار العلم ١٩٦٤ م .
- ٢٢ — الجرارى ، عبد الله بن عباس : تقدم العرب في العلوم والصناعات
وأستاذيتهم لأوروبا ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ٢٣ — أنور الرفاعى : الانسان العربى والحضارة ، بيروت ، دار الفكر ،
١٩٧٠ م .
- ٢٤ — أنور الجندي : العالم الاسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى
القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧٠ م .
- ٢٥ — محمود شاكر : المسلمون في قبرص ، جده ، الدار السعودية ، ١٩٧٤ م .
- ٢٦ — المدنى ، أحمد توفيق : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ،
الجزائر ١٩٥٦ م .
- ٢٧ — ابن عبد الحسك ، عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها ،
القاهرة ١٩٦١ م .
- ٢٨ — البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٩ م .

- ٢٩ — أرشيبايد ، لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،
ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٣٠ — أمارى ، مينخائيل : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٨٧ م .
- ٣١ — الصبحى ، محمد إبراهيم : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٦٨ م .
- ٣٢ — الحموى ، محمد ياسين : تاريخ الأسطول العربى ، دمشق ١٩٤٥ م .
- ٣٣ — الخربوطلى ، على حسنى : الاسلام في حوض البحر المتوسط ، بيروت ١٩٧٠ م .
- ٣٤ — بارتولد ، ف : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة طاهر حمزة ، القاهرة
١٩٥٨ م .
- ٣٥ — بروفسال ، ليفى : حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوفان قرقوط ،
بيروت د.ت .
- ٣٦ — بروسكان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ، منير
البعلمكي ، بيروت ١٩٦٥ م .
- ٣٧ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٣٨ — حماد حسن السيد : الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٣٩ — حيدر بامات : دور المسلمين في بناء المدينة الغربية ، جنيف د.ت .
- ٤٠ — حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٤١ — راشد ، زينب عصمت : كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٤٢ — زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ،
القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٤٣ — سالم السيد عبد العزيز : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ،
١٩٦٢ م .
- ٤٤ — سرور ، محمد جمال الدين : تاريخ الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣ م .
- ٤٥ — سبير القلاوى وآخرون : أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ،
القاهرة ، ١٩٧١ م .
- ٤٦ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

- ٤٧ - طوقان قدرى حافظ : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ،
القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ٤٨ - العقاد ، عباس محمود : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، القاهرة ،
دار المعارف ، ١٩٥٨ م .
- ٤٩ - عاشور ، سعيد عبد الفتاح : فضل العرب على الحضارة الأوربية ،
القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٥٠ - عبد الرازق نوفل : المسلمون والعلم الحديث ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٥١ - عبد الحميد العبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس القاهرة ، دار القلم ١٩٦٤ م .
- ٥٢ - عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، القاهرة الانجلو المصرية
١٩٦٠ م .
- ٥٣ - محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ٥٤ - عنان ، محمد عبد الله : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٥٥ - غوستاف ، لويون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعير ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- ٥٦ - فيليب حتى ، وآخرون : تاريخ العرب ، بيروت ، ١٩٦١ م .
- ٥٧ - لطفي عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ٥٨ - متر ، وآدم : الحضارة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ،
القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٥٩ - مصطفى الرافعى : حضارة العرب فى العصور الإسلامية الزاهرة ، بيروت
١٩٦٠ م .
- ٦٠ - ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية ، بغداد ١٩٦٩ م .
- ٦١ - هازارد ، هارس : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة محمد عوض محمد ،
برستون ١٩٥٤ م .
- ٦٢ - هونسكه ، زينرد : شمس العرب تسطع على أوروبا ، ترجمة فاروق ببيضون ،
كمال الدسوقي ، بيروت ١٩٦٤ م .
- ٦٣ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ م .
- ٦٤ - دائرة المعارف الإسلامية : ١٢ جزء ، القاهرة ١٩٦٣ م .

- ٦٥ — دائرة معارف السنياني : ١١ جزء ، بيروت ١٨٧٦ م
- ٦٦ — دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي ١٠ جزء ،
بيروت ١٩٧١ م .
- ٦٧ — حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ م
- ٦٨ — حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب العربي الاسلامي القاهر ، ١٩٦٨ م .
- ٦٩ — محمد عبد المنعم خفاجي : الإسلام والحضارة الإنسانية ، بيروت ١٩٧٣ م
- ٧٠ — الاصطخرى : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ م
- ٧١ — نفيسي أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ١٩٦٠ م .
- ٧٢ — الذهبي ، محمد عبد الله : تاريخ الإسلام ، القاهرة د. ت .
- ٧٣ — صابر محمد دياب : سياسة الدولة الاسلامية في حوض البحر المتوسط ،
القاهرة ١٩٧٣ م .
- ٧٤ — سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م
- ٧٥ — إبراهيم أحمد العمري : الأمويين والبيزنطيون والبحر المتوسط بحيرة
إسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ٧٦ — إبراهيم أحمد العمري : الأساطيل العربية في البحر المتوسط : القاهرة
١٩٥٧ م .
- ٧٧ — إحسان عباس : العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٧٨ — فازيليف ا. ا. : العرب والروم ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة
١٩٥٠ م .

المراجع الأجنبية

- 1 — Cont well, Smith : Islam in the Modern history, Newyork 1952.
- 2 — Dencel, A N : Islam, Europe and Empire, London, 1968.
- 3 — Halt, P.M. ed, and others : The Cambridge history of Islam, 2 Vol., Combridge Univeristy, 1970
- 4 — Hughes, A : Dictionary of Islam. London, 1885.
- 5 — Glubb, John : The empire of the Arabs. London, 1963.
- 6 — Khaddury, M. : The Nature of Moslem States. London, 1945.
- 7 — Stewart, D. The Arab world. London, 1968.
- 8 — Lewis, Barnard. : The Arab in history, London, 1950.
- 9 — Montell, V. : Le Monde Muselman, Geneve, 1963.
- 10 — Brooke, Z N. : A History of Europe. London, 1928.
- 11 — Davis. K H : A History of Early Mediaeval Europe London, 1966.
- 12 — Chew, M. A. Latham, C : Europe in the Middle Ages, London, 1936.
- 13 — Encyc Laredia Brihannica : 23 Vol, London, 1960.
- 14 — Encyc. of Islam.
- 15 — Eyre, E. : European civilization, its origins, develapment, oxford, 1935.
- 16 — Freeman, E. A. : Western Europe in Eight Century London 1904.
- 17 — Freeman, E.A. : Western Europe in Eight Century, London. 1904.
- 18 — Hollam, H. : View of the State of Europe during the Middle Ages. London, 1914.
- 19 — Hunt, W. : History of Italy, London, 1878.
- 20 — Waera, C. : Mediaeval Sicity, London, 1910.